إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

العلاج الرباني للمعصية

إعداد

مجموعة من الباحثين

بين يدي الكتاب

يُلاحَظ أنّ أغْلب الدّراسات في إطار إصْلاح الفِكــر لاَ تَكاد تَتجاوَز بَحث الواقِع وإفْرازاتِه، ومَا الذي يَحتاج إليــه مِن أدوات ووَسائِل لِأجل مُسايَرتِه وتَغيِيرِه والسَّيطرَة عليــه، دُون أن تَتقدَّم خُطوَة لِبَحث قَضيَّة المصير، ومَع تفهُّمِنا لِذلك، بَل وتَشجيعنا لِهذه الدِّراسات.. نَرى أنَّ الــمُعِين الأَكبَــر على ضَبط الواقِع بمَفهومه الواسِع، وتَوجيهه الوِجْهة المرضيَّة هو تَقديم الصُّورة الواضِحة عَن المصير كمَا أرادَها الخَــالق العظيم.

فهذه مُقارَبَة لِأُولى المفــاهيم الــتي يَنبَغــي مُراجعَتَــها والوُصول إلى كلمة الفصْل فيها، بَعيداً عن كلِّ تعصُّــب أو تَقليدٍ، في إطار العَوْد الحميد إلى المصدَر الربَّاني الذي لاَ يأتِيه الباطل مِن بين يَدَيْه ولاَ مِن خَلفه، وتَخْليص الكتاب العزيــز ممّــا زاحَمَــه وقلَّــص مِــن صــلاحيَّاته...

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

في نُفوس الــمُخلصين شَوْق دائم إلى رُؤية دِين الله –تعالى- وقد تَمكّن مِن النُّفوس وانبَسط في شتّى البِقاع، فتِلك عندهم غايَةُ كلِّ جَهدٍ ودافِع كلِّ نَشاطٍ.. بيْد أنَّ الخِلاف في تَصوُّر الــمَنظومة الفِكرية العَمَليَّة التي تُعِين علَى ذلك، وفي كَيفيَّة إيصالِها إلى الأذهان وتَرسيخِها في القُلوب بِأقلِّ تَكلُفَةٍ ومِن أيسَر طَريق.

ومُهِمَّتُنا هُنا لَيسَت الفَصْلَ في تِلك الــمَنظُومة الفِكريَّة أو في كَيْفيَّة الِإقْناع بها؛ وإنَّما مُحاولةٌ لِعرض تَصوُّرٍ احْتفَى به القُرآنُ الكَرِيم كَثيراً، وصرَّفَهُ في أَثنائِه، وتَناولَه مِن جهاتٍ عِدَّة.. فِي سَعْيٍ إلى إيجَاد الخَيطِ الرَّفِيع الذي يَربط بَيْن هَذه الجِهاتِ، لِنضَع بِذلِك لَبِنَةً -نَحسَبُها- جوهَرِيَّةً أساسِيَّةً في الــمَنظُومَة الــمُشارِ إليهَا،

مُعتَمِدِين في ذَلِك عَلى الآياتِ الــمُحْكمَة التِّي لا يُتَصوَّرُ أن تَأتِيَ رِوايَات -قَد يَقَعُ نِزاعٌ في ثُبُوتِها- بخِلافِها.

وإذَا كَانَت مُهِمَّة القُرآنِ الكَرِيم العَظِيمَة هِي تَربِيَةُ أُمَّةٍ تُقِيم الدِّين أمْراً بالــمَعْرُوفِ ونَهْياً عَن الــمُنكَرِ وإيــماناً بالله؛ فَإنَّ تَربِيَةَ النُّفُوسِ تُعَدُّ وَسِيلَة لِذلِك، ولَيس أَمْضَى فِي تَربيَة النَّفس مِن تَغْيِيرِهَا مِن الدَّاخِل، ولِذَا جَاء قَولُهُ –تَعَالى-:﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[١] وقَولُه أيضا:﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾[٢] ولَسنَا نَعنِي هنا بتَغيِير النّفس مِن الدَّاخِل تَغْيِيرَ رُؤْيَتِها إلى نَفْسها وإلى الأَشيَاء مِن حولِهَا، وتَعْلِيمِها مَبَادِئَ التَّعامُل مَعَ ذلِك كُلِّه -علَى أَهمِّيَة ذَلِك-؛ وإنَّمَا نَعنِي تَصْحِيح تَصوُّرِها نَحْوَ مَسْأَلَةٍ غَيْبيَّةٍ كَثِيراً مَا أَلَحَّت الآيَاتُ فِي بَيَانِهَا -كمَا سَبَقَت الإِشَارة-، وهُو تَصْحِيح يَستَتبِع غَيرَه.

١) سورة الرعد، الآية ١١.

٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٥.

ويُلاحَظ أنّ أغْلب الدِّراسات في إطار إصْلاح الفِكر لاَ تَكاد تَتَجاوَز بَحث الواقِع وإفْرازاتِه، ومَا يَحتاج إليه مِن أدوات ووَسائِل لِأجل مُسايَرتِه وتَغيِيره والسَّيطرَة عليه، دُون أن تَتَقدَّم خُطوَة لِبَحث قَضيَّة المصير، ومَع تَفهُّمِنا لِذلك، بَل وتَشجيعنا لِهذه الدِّراسات.. نَرى أنَّ الـمُعين الأَكبَر على ضَبط الواقِع بِمَفهومه الواسِع، وتَوجيهِه الوِجْهة المرضيَّة هو تَقديم الصُّورة الواضِحة عَن المصير كمَا أرادَها الخَالق العظيم.

فهذه مُقارَبَة لِأُولى المفاهيم التي يَنبَغي مُراجعَتها والوُصول إلى كلمة الفصْل فيها، بَعيداً عن كلِّ تعصُّب أو تَقليدٍ، في إطار العَوْد الحميد إلى المصدَر الربَّاني الذي لاَ يأتِيه الباطل مِن بين يَديْه ولاَ مِن خَلفه، وتَخْليص الكتاب العزيز مِمّا زاحمَه وقلَّص مِن صلاحيَّاته...

ونُقدِّم بَين يَديْ هذه المقاربة جُملةً مِن الأسئِلة لعلَّ أَوضَحها هي: هل مفاهيمُنا وتصوُّراتنا عن المصير ربَّانيَّة المصدر أي قرآنية، فلا نَجِد في الآيات ما يَدعونا إلى إعادة النَّظر؟، ثُمّ إنَّنا نَجد في

الكتاب المبين حِكاية تَصوُّرات أهل الكتاب عن المصير واستِنكارِها، فما مدى بُعدِنا عنها؟، وما عَلاقة هذه التَّصوُّرات بصفات الكمال لله عزَّ وجلّ كَصِفة الصِّدق والعَدل والقُدرة؟، وما أَثَر اختِلاف التَّصوُّر المصيري في العَمل على مُستَوى الفَرد والـمُجتَمع؟ وما مدى مساهمة ضبط التَّصوُّر المصيري في الإجابة على السّؤال الذي أرَّق المفكرين: لماذا تخلّف المسلمون ؟... وأسئِلة أُخرى تَفرِض نَفسها في هذا السِّياق.

المؤلف

لملاحظاتكم: djaza@gawab.com

الإنسان في الوجود

في القرآن الكريم جانب مُهمّ من الآيات تتحدث عن الخَلق.. سواءٌ أكان خَلقاً للأحياء أو لِما حولها من الكون المترامي الأطراف، والكُلّ يصنع لوحة الوجود كما شاء لها المدبِّر الحكيم أن تكون ﴿كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾(١) ﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

إلى جانب ذلك نجد في الآيات ما يدلُّ على أن هذا الخَلق إنَّما سُخِّر تسخيرًا لمصلحة الإنسان، ويبرز ذلك في آيات، نكتفي منها بقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

١) سورة آل عمران، الآية ٤٧.

٢) سورة المائدة، الآية ١٧.

عَلِيمٌ﴾(١) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

فَعجيب أن يحظى هذا المخلوق الضعيف بكل هذه العناية الإلهية، فتُخلَق لأجله كل تلك المخلوقات بأصنافها وأنواعها - ما ذُكِر منها وما لم يُذكر - بل وتُسخّر له، سواء ما أدرك منها جانب منفعته وما لم يدرك، بل وأوتي من كل ما تطلَّع إليه، فَغُمِر بالنعم، بما لا قدرة له على إحصائها﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(٣).

هذا ما يدفعنا إلى البحث عن سرِّ هذا التفضيل، الذي جاء التصريح به في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

١) سورة البقرة، الآية ٢٩.

٢) سورة الجاثية، الآية ١٣.

٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

تَفْضِيلاً﴾[١]، والتفضيل يكون عن تفرُّد في ناحية ما، فما هي يا ترى؟.

ولعل في هذا السياق العام الذي تفرّد بذكر الإنسان من بَعدُ، ما يدلنا على سرِّ هذا التفضيل البالغ، قال تعالى:﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[٢].

فقد شاءت العناية الإلهية أن تَهب هذا المخلوق تلك المواهب وتخصَّه بها، دون أن يكون له في ذلك حول ولا طول، فما الذي يُنتظر منه إزاء هذا التفضيل والتشريف البالغين؟ ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤][١].

١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
٢) سورة السجدة، الآية ٨.
٣) سورة النحل، الآية ٧٨.
٤) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

فثمة إذاً تكليف خُلق الإنسان من أجله، وهو في ذلك متروكٌ لاختياره، بعد أن وَهبَه الله تعالى أداة التمييز بين الصالح والفاسد، والتفرقة بين الحق والباطل﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[٢].

وليس هذا فحسب، بل أمدَّه الله تعالى -رحمة منه- بما يُعينه على الاختيار الصحيح، فكان مَبعث الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- على مرِّ الزمن أقوى مُعين، ولنقرأ قوله تعالى:﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٣]، وقال تعالى لرسوله الكريمﷺ:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤].

١) - العبادة عندما تعني أشمل معانيها، أي كل عمل يقوم به الإنسان ضمن هذه المنظومة الكونية الساجدة استجابة لأمر الله تعالى، من شأنها تحقيق التمكين والاستخلاف في الأرض كما وُعِد بذلك المؤمنون في آيات، ولا يقتصر ذلك على مجرد أداء الشعائر الدينية من صلاة وصيام وزكاة...
٢) سورة الكهف، الآية ٢٩.
٣) سورة النساء، الآية ١٦٥.
٤) سورة فاطر، الآية ٢٤.

ومُهمَّة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بما أُوحي إليهم من كتب وصحف، تعمل على توجيه طاقات الإنسان الفكرية والبدنية إلى كل ما هو خير، وتُبعده عن كل ما هو شر، فَلَقد وصف الله تعالى مجيء الرسول ﷺ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فإذا كان الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- يُوَجِّهون الناس إلى الاختيار الصحيح، فإن الله تعالى من حكمته أن جعل للإنسان أهواء[٢]، قد تحول بينه وبين الاختيار الصحيح، وابتلاه بشيطانٍ يعمل على تزيين تلك الأهواء، ويَدعُوه إلى الاستجابة لها، فها هنا محل الابتلاء والاختبار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[٣] ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ

١) سورة الجمعة، الآية ٢.

٢) - جمع "هوى": ونقصد به ما تميل إليه النفس وتشتهيه مما يخالف شرع الله تعالى.

٣) سورة الملك، الآية ٢.

بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[١] ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾[٢].

ولِيَقَع الابتلاء وتُمحَّص النفوس ويُميَّز الخبيث من الطيِّب... كان في مقابل أهواء النفس وإغراءات الشيطان وتزيينه.. تحذير من شقاء أبدي وإغراء بنعيم أبدي، يَأتيان باستمرار ضمن بيان الأوامر والنواهي، التي تكون على أيدي رسالات الرسل –عليهم الصلاة والسلام-، ولقد وصف الله تعالى القرآن الكريم فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[٣].

تصريف الوعيد في القرآن وجعله سببا لإحداث الذكرى، يجعلنا نُوقِن أنه يقف سدا منيعا في وجه الأهواء وتزيين الشيطان لها، ويَقينُنا يتضاعف عندما نتلو مثل هذه الآيات الكريمات: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ

١) سورة سبأ، الآية ٢٠.

٢) سورة النحل، الآية ٦٣.

٣) سورة طه، الآية ١١٣.

أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[١]، ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٤]، ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[٥] وغيرها.

١) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٢.
٣) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.
٤) سورة النساء، الآية ٥٩.
٥) سورة التوبة، الآية ٤٥.

فهذه جُملة توجيهات قرآنية عُلِّق الإتيان بها أو الانتهاء عنها بالإيمان بالله واليوم الآخر، معنى ذلك أن عدم الانضباط وفقها، لا يكون إلا لخلل في الإيمان بالله أو اليوم الآخر ولابُد، وغيُرها من التوجيهات لها الحكم نفسُه عندما تُنتهك، إذ يجمعها جميعا الخروج عن الطاعة والانغماس في المعصية..

فإذا كان الإيمان بالله تعالى؛ يَتَقوَّى في النفس ويستوْلي عليها، بتقدير تلك النعم -التي قد مرَّت- وغيرها، واستشعار قيمتها وآثارها على حياة الإنسان، وهي تملأ الوجود، بل هي في كل جليلة وحقيرة منه، كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١]، وفي قوله تعالى -مع شيء من التفصيل-:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ

١) سورة آل عمران، الآية ١٩١.

الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١] .. فإن الإيمان باليوم الآخر-وهو اليوم الذي يُجازَى فيه كلٌّ بما عَمِل، إن خيراً أو شراً- لا يَستوْلي على النفس، ولا يكون له تأثيرٌ في العمل إلا بالكشف عمَّا يُغيِّر من حقيقته التي وصفها القرآن الكريم، وإذا كان القرآن -كما سبق- يُعلِّق ما جاء فيه من أوامر ونواهٍ على قانون الجزاء الذي صرف فيه تصريفا، فلا غرو أن البحث يكون على الصيغة الصحيحة لهذا القانون، ونفترِض أن ثمة تغييرا وتحريفا قد حصل له؟.

والله العليم الخبير بأهواء النفس ومداخل الشيطان.. عندما سن ذلك القانون وفصَّله في كتابه، وبَيَّن ما يُغيِّر من حقيقته، كان سبحانه وتعالى يُقدِّم معونة للناس جميعا، لا يقوم بها أيُّ فكرٍ مهما سما في درجات الكمال، وليس ذلك فقط لأن الفكر لا يُمكِنه خرق حُجُب الغيب والاطلاع على خفاياه، ولكن أيضا لضُعف الإنسان وقِلَّة حيلته -مهما أوتي من ذكاء وعبقرية- ما لم

١) سورة البقرة، الآية ١٦٤.

يهتد بهدى الله تعالى في كتابه، ولنقف على ذلك كله فلنقرأ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[١]، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٢].

إذاً نحن مدعُوُّون جميعاً للرجوع إلى هذا البيان الإلهي الرحيم، ليَهدِيَنا إلى السر الذي به نكسِب المعركة مع إبليس وجنوده، ولنتعرف على أسلحته ومعداته وشبكاته، تماما مثلما يفعل الأعداء في هذه الحياة الدنيا، عندما يتَّخذون من جهة مَّا عدوًّا، ونحن مدعُوُّون بنص الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٣].

١) سورة النساء، الآية ٢٨.

٢) سورة سبأ، الآية ٥٠.

٣) سورة فاطر، الآية ٦.

وأمرٌ مؤسِف أن نوهم أنفسنا أنَّنا قد اتخذنا من الشيطان عدوّاً، في حين أنَّنا في غفلة شبه تامَّة، عن أيِّ شيءٍ من خُطَطِه، والتي ابتدأها يوم طُرِد من رحمة الله تعالى، وطلب الإمهال إلى يوم الدين و﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[١].

ومن المُهِمِّ أن نَنْتَبِه إلى هذا الجانب الذي لا ريب في حصوله، ولْنَتلُ تلك الوصية التي جاءت عقب قصة آدم -عليه الصلاة والسلام- ووقوعه في شَرَك الشيطان، وذلك لما قال تعالى:﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ

١) سورة الأعراف، الآية ١٧.

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١].

نعود فنقول: لابُدَّ أولاً وقبل كل شيءٍ من ملاحظة ارتكاب هذا اللعين لأول معصية فيما قصَّه الله تعالى، وكان وراء المعصية الثانية لما استقر آدم -عليه السلام- وزوجه في جنته، فكان سببا مباشرا في الخروج منها، دون أن نغفل عن هذه الوصية التي جاءت عقب تلكم المعصيتين، وما جاء فيها من كلمات: (بني آدم)، (الفتنة)، (الشياطين أولياء)، (الذين لا يؤمنون)، (فاحشة)، (الآباء)، (تقولون على الله ما لا تعلمون).

ولعلَّه من المفيد قبل الدخول في صُلب الموضوع التَّنبيه على أن حضور الشيطان المتكرِّر نسبيًّا في هذه الفقرات والتي بعدها؛ إنما هو ضرورة اقتضاها السياق لدوره في موضوع المعصية، وإلاَّ فهو مخلوق لله تعالى، وحقيقة غيبية أسند الله تعالى إليه أفعالا مثل: (التزيين، الإغواء، الإغراء، الدعوة إلى حزبه، إثارة الفتنة، زرع الأماني، الوسوسة...) ، فتأثيره يبقى في حدود هذه الأفعال فلا

١) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

سلطان له على إرادة الإنسان واختياره، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، ويوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه من أهل النار:﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[4].

١) سورة النحل، الآية ٩٩.

٢) سورة الحجر، الآية ٤٢.

٣) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

٤) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

المعصية تحت الجهر

إذا رجعنا إلى قصة أبينا آدم -عليه السلام- مع إبليس لننظر كيف كان التعقيب على ما صدر من كليهما، نجد في جانب إبليس قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1]، ولوجدنا في جانب آدم -عليه السلام- وزوجه قوله تعالى:﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2]، ففي كلا الموضعين إنكار لصدور المخالفة؛ لوجود الأمر في الآية الأولى، والنهي في الآية الثانية.. معنى ذلك أن وجود أي منهما يقتضي الامتثال دون التفات لحجم الأمر أو النهي، هذا إذا صحَّ لمخلوق ضعيف أن يُمِدَّ نفسه بصلاحية قياس حجم الأمر والنهي الصادرين من الخالق العظيم صغرا وكبرا!.

١) سورة الأعراف، الآية ١٢.

٢) سورة الأعراف الآية ٢٢.

لو افترضنا أن إبليس له أعمال سلفت كأعمال الملائكة الذين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(١) فهل يقبل منه عدم السجود بعدما أمر؟، أو أن ملكا من الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- فعل فعلة إبليس، هل يعني أن أعماله ستشفع له في عدم السجود بعد صدور الأمر؟، فالجواب: لا؛ لأن علة الإنكار وجود الأمر والنهي في الآيتين.

ولقد كان في إمكان آدم -عليه السلام- أن يحتج بأن مجرّد (الذوق) من الشجرة أمر حقير وذنب صغير، فلِمَ احتاج الأمر إلى كل هذا التنبيه!، لكن ذلك لم يحصل، بل سارع آدم وزوجه -عليهما السلام- إلى تدارك الأمر، والتوبة منه في شكل عجيب:﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢) فأولا: رأيا أن فعلهما ظُلمٌ للنَّفس، وثانيا: علّقا النجاة منه، والبعد عن الخسران؛ بتدخل مَغفِرةِ الله ورَحْمتِه.

١) سورة الأنبياء، الآية ١٩.

٢) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

العلاج الرباني للمعصية

فالذي صدر من إبليس أو من آدم وزوجه - عليهما السلام- عقب تذكيرهما بالمخالفة؛ يجعلنا -تأكيدا- نعيد النظر في قانون المعصية، سواء من حيث (الأمن) من المؤاخذة عليها؛ بسبب ما قد يَطرأُ على الذهن مما يُهوِّن من شأنها، أو من حيث (الحجم) صغرا وكبرا، مع تأكُّدنا من وجود الأمر أو النهي، ولْنستحضر دائما أن تَكرّر هذه القصة في القرآن الكريم ستَّ مرَّاتٍ أمرٌ له دلالَته واعتِباره، فضلاً عمّا يقتضيه التوجيه الذي قُصد به بنو آدم عقبها، قال تعالى:﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

ولقد عاب الله تعالى على الخلف من بني إسرائيل تصورهم المخالف للحق الذي جاء في الكتاب، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ

١) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(١).

ولْنتأمل طويلا؛ كيف يتحوّل ذلك الخلف عن التّنبيه الربّاني الواضح: (وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) من هذه المغفرة الأكيدة والمشروطة في آن واحد، إلى القول:(سيغفرلنا) عارية من أي شرط أو قيد، بل في جُرأة غريبة؛ إذ تُقال أو تُستشعَر مع ارتكاب المعصية!.

ثم لِنسأل أنفسنا: هل نحن سالمون من هذا الأمر، فليس في تصوُّراتنا عن المعصية وعاقبتها مثل هذا الدخيل؟، دون الذُهول عن أن المقصود من حكاية أمر بني إسرائيل: العظة والاعتبار والاهتداء؛ قال تعالى:﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

١) سورة الأعراف، الآية ١٦٩.
٢) سورة النمل، الآية ٧٦.

فتنة الأماني

ولابد لنا من وقفة جدية لمحاولة استقصاء ما يلقيه الشيطان في رُوع الناس وأذهانهم، فيُشعرهم بإمكانيَّة المَغفِرة مع ارتِكاب المَعصيَّة ولو مِن غَير تَوبَة، قال تعالى:﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾(١)، ودليلنا في ذلك كله القرآن الكريم، المحفوظ من كل زيادة ونقصان، المعصوم من كل تناقض واضطراب، المُيسّر لكل عالم ومتعلِّم..لاسِيَما في هذا الأمر الغيبي الذي لا تختلف فيه الرسالات جميعاً؛ إذ تؤول بالحكم الإلهيِّ العادل إلى مصير واحد:﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

والسؤال المطروح: ما هي هذه الوعود والأماني التي حذرنا منها، وكيف جاء ذكرها في القرآن الكريم؟.

١) سورة النساء، الآية ١٢٠.
٢)سورة النمل، الآية ٧٨.

*****

الاغترار بالتوحيد:

أو الشعور بالانتماء إلى أمة الإسلام، أو أمة الرســـــول ﷺ فيُترك الأمر أو يُفعل المنهي؛ لأجــل الشــعور بهــذا الانتســاب الـــمُنجي من عذاب الله تعالى ولو على جهة الاحتمال!، وقد مرّ بنا قريباً ما يُعبِّر عن مثل هذا الشعور عند بني إســرائيل، ورأينــا كيف عاتَبهم الله عليه؛ كونهم قالوا على الله غير الحق.

وسبب هذا الشعور السّلبي هو: الغفلة عن أنّ المطلوب مــن العبد العبادة الخالصة لله تعالى دون مَنٍّ، ولا غرورٍ، ولا اســتكثارٍ؛ إذ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّــكَ بِظَلَّــامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١)، و﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَــى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

١) سورة فصلت، الآية ٤٦.

٢) سورة الجاثية، الآية ١٥.

والقرآن الكريم لم يترك هذا الأمر دون بيانٍ واضحٍ لـــمّا قصّ علينا حال الأعراب:﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُــوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُــوا اللَّــهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) فَفرق بين الإيمان الذي يَسْتتبع الطاعة لله تعــالى ورســوله ﷺ ، وبــين (الإسلام) الذي لم يُلامِس شِغاف القلوب، حتى لَأنّه يُعدّ سِــتاراً للمعصيَة، ووسيلة شعورٍ بالأمان!؛ لِذلك احتاج أولئك الأعــراب للتّعريف الصحيح بصفة المؤمنين؛ فجاءت الآيات من بَعدُ:﴿إِنَّمَــا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٢).

إيمانٌ بالله ورسوله في غير ارتيابٍ، وجهادٌ بالمال والنفس في سبيل الله، ولا ريب أنّ الإقدام على ذلك دليلُ الإتيان بما دونه من الأوامر والنّواهي بالدرجة الأولى، فمن كان بهــذه الصــفة هــم الصادقون لا غير.

١) سورة الحجرات، الآية ١٤.

٢) سورة الحجرات، الآية ١٥

فالإيمان الحقّ، والإسلام الصحيح؛ عملٌ جادٌّ خالصٌ في غير مَنّ، لا مَكسَبٌ ساترٌ لمعصية الله تعالى:﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

ولقد حكى القرآن الكريم عن اليهود والنصارى من الغرور؛ ما هو أبعد عن تصوّر أولئك الأعراب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[٢]، ولابدّ من ملاحظة: كيف ربَطت الآيات بين هذا التصوّر الواهم؛ الذي يَقطُر كِبرا وغرورا، وبين تذكيرهم بالعذاب بما يَقترفون من الذنوب؛ لا لِشيءٍ غير أنّهم بشر ممّن خَلَق.

١)سورة الحجرات، الآية ١٦.

٢) سورة المائدة، الآية ١٨.

وغُرور أولئك لا يقف عند حدّ، فقد حكى الله تعالى عنهم أيضا قولهم:﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، سبيل لهم إلى برهان في هذا الأمر الغيبي فلِمَ الادعاء والغرور إذاً؟!.

ومن المهمّ ملاحظة أنّ القول لا يكون إلا بعد التّصوُّر القلبي والشعور الوُجداني، فَقَد يُقرن ذلك بالقول من صاحبه، وقد يبقى مجرّد شعورٍ، وبطبيعة الحال فكُلّ من يرى أنّ أُمّة ما أو فِئَة مّا تستحقّ دخول الجنة دون غيرها؛ لأجل انتسابها إلى شيء مّا أو جنسيّة مّا هو مُقتَدٍ بأولئك لا محالة، ومُطالَب مثلهم بالبرهان، ولا سبيل له إليه البتة!، فما المطلوب إذاً، وما المقياس الصحيح الذي يجب أن يُتّخذ شعاراً؟، ذلك ما أَوْضَحته الآية من بَعد:﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢] إسلامُ الوجه لله تعالى مع الإحسان، جُملة

١) سورة البقرة، الآية ١١١.

٢) سورة البقرة، الآية ١١٢.

مُشعرة بكامل الخضوع والانقياد لما جاء في وحي الله تعالى قولاً وفعلاً، علماً وعملاً، منهجاً وسلوكاً.

لِذا فَما قِيل مِن أنَّه "لا تَضُرّ مَع الإيمَان مَعصيَة" أمر عجيب، إذ مَا الفرق بَين هذه المَقُولة، ومَا حَكاهُ الله تعالى عَن اليَهود والنَّصارى؟!، أَلَيست تَعني تَصور عَبَثيّة الأوامِر والنَّواهِي في دِين الله تَعالى، وتَعني أيضاً تَصُوّر إخلاف الوعيد.. والله تعالى لمّا أَوعد وتَوعّد لم يقل إلا صدقاً ولم يتكلّم إلا حقّاً، وهذا أمر لا يجوز أن يرتاب فيه مؤمن عاقل؛ إذ لا تبديل لكلمات الله تعالى، ومع وضوح هذا الأمر، فقد جاءت الآيات لتؤَكِّد هذه الحقيقة البَدهيّة، قال تعالى:﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]، وفي أخرى:﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[2]، وفي أخرى وبصياغة أخرى أيضا:﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ

١) سورة هود، الآية ١١٩.

٢) سورة الكهف، الآية ٢٧.

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، وفي أخرى وبصياغة أخرى مقرونة بلفظ الوعيد:﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

وعليه فَمَن أجاز في حق الله تعالى مع ذلك الخُلف في وعده أو وعيده، فلا يخلو: إمّا أن يَصِف الله تعالى بالجهل، من حيثُ إنه سَيَبدو له يوم القيامة ما يجعلُه يتراجع عن وعده أو وعيده -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، وإمّا أن يصف الله تعالى بالكذب -تعالى الله عن ذلك- من حيثُ إنه عالم بأنّه سيُخلف وعده أو وعيده، لكن مع ذلك وعد وتوعّد تخويفا وترهيبا!، ولا محيص -مع التأمل- من الوُقوع في أحد الأمرين!.

ثم إن ثمة آيات كثيرة تقضي بعدم نجاة العاصي غير التائب (المُصِرّ) من معصيته، وهي تنسجم تمام الانسجام مع تلك القاعدة التي بيَّنّاها في صدق الله تعالى في وعده ووعيده.

١) سورة يونس، الآية ٦٤.

٢) سورة ق، الآية ٢٨.

ولْنبدأ بالآيات العامّة الـمَنثُورَة في القرآن الكريم، وهي كثيرة جدّاً، وقد صِيغت على شكل قوانين صارمةٍ، تعمل على التّفرقة بين فريقَي الجنّة والنّار، ولقد تعدّدت الأسماء والصفات التي نُسبوا إليها، غير أنّ السياق ومقابلتهم بفريق السّعداء أهل الجنّة تجعلنا نُميِّزهم، ودون أن نحصر تلك الأسماء والصفات في المشركين، فدخول النّار -والعياذ بالله- لم يُخصّ به المشركون، ولا أنّ الخلود فيها هو عليهم فقط، وقد قال تعالى ردًّا على أهل الكتاب الذين اغترّوا ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١)، وعندما يأتي ذِكرُ الخلود في مقابل (الأيام المعدودة) يعني التّيْئِيس من الخُروج، وهل قال أولئك ذلِك إلا طمعاً ورجاءً في النّجاة من الخلود في النّار، ويُؤكّد ذلك كلّه مقابلتهم بأصحاب الجنّة الذين هم فيها خالدون.

١) سورة البقرة، الآية ٨٠.

وآية أخرى يُعتمد فيها أسلوب المقابلة أيضا بين الفريقَين وهي قوله تعالى:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١)، فثمّة فريقان لا غير؛ فريق مُحسِن أصحاب الجنّة هم فيها خالدون، وفريق مُسيء. وكَسْب السيئات -كما في تعبير الآية- دليل الإصرار وعدم المسارعة إلى التّوبة، فيكون صاحبها من أهل النّار هم فيها خالدون.

وآية أخرى على النّهج نفسه:﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾(٢) ولِمَن شاء أن يَحشر المصرّين على معاصي الله من أكَلَة الرّبا، وشاربي الخمر، والزُّناة، وأهل النّميمة، والغَيبة، والكذب... مع

١) سورة يونس، الآية ٢٦.

٢) سورة الإنفطار،الآية ١٣.

الأبرار، أو يَزعُم أنّهم ليسوا من الفجّار، أو يَجعل من قوله تعالى:(وما هم عنها بغائبين) دليلاً على خروجهم من النّار!.

وآية أخرى، وعلى النّهج نفسه:﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[1] ولِمَن شاء أن يُسوّي بينهما فلْيَفعل، أو يَزعُم أنّ العصاة المصرّين من المؤمنين!، وحيث لا مفرّ من الشعور بالفَرق، توضّح الآيات:﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

وآية أخرى، فبَعد بيان حُكم المَواريث في سورة النّساء جاءت الآيات مُعقِّبة:﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا

١) سورة السجدة، الآية ١٨.
٢) سورة السجدة، الآية ١٩.

فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]، والعِصيان في الآية يَشمَل تعدّي تلك الحدود من المواريث وغيرها، فالآية عامّة والمصير واحدٌ خلودٌ في النّار. والآية في مقابل من يُّطع الله ورسوله أهلُ الجنّة الذين هم فيها خالدون.

وأُخرى:﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾[2]، وأيضاً على من شاء أن يَجعل المُتهاونين بأوامر الله تعالى ونَواهيه، المصرِّين على معاصيه من المؤمنين؛ الذين قد عملوا الصالحات!؛ وفي مِثل أولئك نَتلو عليهم قوله تعالى:﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾[3] فَما معنى اجْتِراح السّيِّئات؟، أَليس ارتكاب ما نَهى

١) سورة النساء، الآية ١٣.
٢) سورة طه، الآية ٧٤.
٣) سورة الجاثية، الآية ٢١.

الله تعالى عنه، أو تَرك ما أَمَر به اجْتراح للسّيئات؟، أم أنّ ذلك لا يَصدُر إلاّ من مُشرك!؟، ثم هل يَحقّ لنا إقْحام أُولئك ضِمن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن فرّقت الآية بينهم (ساء ما يحكمون)!.

وكذلك نَتلو الآية:﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[١] ذلك ما يَلزم من لاّ يرى أنّ أهل معاصي الله تعالى المُصرّين عليها من المفسدين في الأرض، ولا يكاد يُميّز بين المُتّقي المُلتَزم بحدود الله تعالى، وبين الفاجر الزّاني أو الشّارب للخمر أو التّارك للصّلاة أو السّاعي بالنّميمَة أو الخائِض في أَعْراض النّاس أو السّارق، أو غيرهم من أهل المعصيَة المُصرّين عليها.. ويعقب تلك الآية قوله تعالى:﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢]، فالحَكَم في مثل هذه القضايا هو هذا الكتاب المُبارك لاَ غير، ولِذلك حُفظ لَفظُه لَمّا لم يُكتَب للرّوايات أن

١) سورة ص، الآية ٢٨.
٢) سورة ص، الآية ٢٩.

تُحفظ ألفاظُها، ولا حتّى معانِيها مع ما جُبِل عليه روّاتُها -مهما قيل في ثِقَتهم وورَعهم- من سهوٍ ونسيانٍ...

ومع وُضُوح ما سبَق ودلالته النّصّية على المراد، قد يقول قائل بأنها آيات عامّة، وأنّ خُروج أهل المعاصي من فريق المؤمنين أو السعداء أهل الجنّة غير واضح، كما أن زَجَّهُم مع أهل الكُفر أو الفُجّار أو الأشقياء أهل النّار قد لا يَتَعيَّن!، ويُجاب بأنّ ثمّة آيات نزلت في معاصٍ خاصّة، ممّا يَتجلّى الأمر معها أكثر، سواءً من حيث عدم الانتفاع بأيّ عملٍ صالحٍ مع الإصرار على المعصيَة وعدم التخلّص منها بالتّوبة النّصوح، أو من حيث النّص على الخلود في النار.

فمنها قوله تعالى في قاتل النّفس المحرّمة بغير حقٍّ:﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[١]، والآية جاءت بعد بيان حُكم القتل الخَطأ عند المؤمن وحالاته، ثم بيّنت حُكم القتل العمد كما في الآية

١) سورة النساء، الآية ٩٣.

المذكورة. والعقوبة -كما نرى- صارمةٌ للغَاية، وقد ابْتدأَت بجعل الجزاء جهنّم مع الخلود فيها، وعلينا ألاّ نحاول التفريق بين خُلود المشرك وخُلود هذا القاتِل؛ لأنّه ليس ثَمّة من دليلٍ واضحٍ في القرآن الكريم على ذلك -وهو الحَكَم-، وقد نَسَب هذا التصوّر إلى أهل الكتاب -كما رأينا-.

ومنها قوله تعالى في أَكَلة الرِّبا:﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، ومن الواضح أن آكل الرّبا ليس بمُشرك عند الجميع، كما أنّ أكْل الربا لا يكون من المشرك فقط؛ فالآية عامّة في كلّ آكِلٍ، فهُم جميعاً يستحقّون هذا الوعيد من الخُلود في النّار، ونَطرح هنا هذا السّؤال -والأمر أيضا ينطَبق على ما سبق-: هل مَن أَقدَم على القتل أو أَكْل الرّبا ثم لم يتخلّص من ذلك بالتّوبة النّصوح ينفعه شيءٌ من أعماله مهْما

١) سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

كَثُرت!؟. والآية عندما نصّت على الوعيد في كلتا الآيتين وما سيأتي من الآيات، هل قد قَصَدت صِنْفاً بعينه من المؤمنين بأن قَصّروا في أعمال الصالحات مثلا؟.

ومنها قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1]، وما قيل فيما سبق يُقال أيضا في هذه الآية الكريمة، وفي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2]، والأَمْر لا يختلف عمّا سبق، بل كلّ آية تعمل على توكيد مصير أهل المعاصي.

ومنها قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ

١) سورة النساء، الآية ١٠.
٢) سورة الأنفال، الآية ١٥.

بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١] وهكذا كلّ آية قد تُضيف لِغيرها ما لم تَذكُره، فهاهُنا الآية بيّنت أنّ النّجاة من تلك المعاصي يكون بالتّوبة، وإلاّ كان أولئك الفاعلون من الظّالمين، وهو حُكمٌ أيضاً يَسري على كلّ ما سبق، وقد رأينا كيف أنّ آدم وزوجه -عليهما السلام- لِمجرّد ذوقهما من الشّجرة عَدَّا نفسَيْهما من الظّالمين المُستحقّين للخُسران إن لم تتداركهُما العناية الإلهيّة بالرّحمة والغفران.

عجيب حقّاً أن تَنُصّ كلّ تِلكُم الآيات على هذه العقوبات، ثم يُوجد ثمّة من يتصوّر أنّها قد ترتفع دون تَخلّص من ذلك بالتّوبة النّصوح!.

* * * * *

١) سورة الحجر، الآية ١١.

الموازنة:

ولعلّ هذه الأُمنيّة هي الأَكْثر انتشاراً في المسلمين، ومفادُها: شُعورٌ بالأمن لدى ارتكاب المعصيَة أو بعدها نظَراً لِوجود أعمالٍ صالحةٍ قد سبَقت، فيتَصوّر المسكين أنّ معصيّته لا تُؤثّر في عمله، بل قد لا تُساوي شيئاً أمامها عند الحِساب، ومِن آثارها على العبد أنّها تَحمِله على الحرص على الطّاعات والنّوافل والِاستِكثار منها، لكن دون محاولةٍ جدّيةٍ للتخلّص مما قد سلَف منه من مَعاصٍ لله تعالى، فربّما ارتكب مظالِم للعباد لم يتنصّل منها، لكن تَجده يُكثر من أداء الحج والعُمْرات، وهو يتصوّر أنّ ذلِك الظُّلم الذي أَقدَم عليه سيتَوارى أمام هذه الطّاعات، ومثال آخر: أن يُقدِم على سرقةِ شيءٍ مّا، ثُمّ يُقدِم على الصّدقة فيتصوّر المسكين أنّ صدقته عند الحساب أوفَى ميزاناً من سرقتِه، كيف والحسنة بعَشْر أمثالها والسيّئة فقط بمثلها أخذاً بشطرٍ من الآية!.

فَعَلى كلٍّ، تناقض هذه التّصوّرات مع ما سبق بَيَانه واضِح جِدّاً، فَمَتى كان إِسلام الوجْه لِله تعالى يخضع لمثل هذه الاعتبارات،

ولو كان الأمر بهذه المَنْزلة لكان رسُلُ الله تعالى الكِـــرام -علـــيهم الصّلاة والسّلام- أولى النّاس بالشّعور بالأمْن لدى ارتكـــابهم مـــا ليس بِمَرْضِيٍّ لكنّ الأمر على العكس من ذلك تماماً..

فهذا نُوح -عليه السلام- قد نادى ربّه﴿...فقَـــالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَـــا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١] فَلم يكن منـــــه -عليه السلام- إلاّ أن ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَـــيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢]، تدارَكَ الأمرَ بسرعةٍ عجيبةٍ، و لم يغترّ بمنزلتِه التّي لا ريب أنّها كبيرةٌ عند الله تعالى!.

وهذا سيّدنا يُونُس -عليه السّلام- يَعتذِر عمّا صدر منه ممـــا ظَنَّه أن لاَّ حَرَج فيه، وقد حكى القرآن لنا ذلك في قوله تعـــالى:

---

١) سورة هود، الآية ٤٥.

٢) سورة هود، الآية ٤٧.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَـــادَى فِـــي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّـــالِمِينَ﴾[١] فأَين اعتبار الأعمال والسّوابق في مَنطِق يُونُس -عليه السلام- لـــو كان لها - فعلا- اعْتِبار!.

وهذا سيّدنا مُحمّد ﷺ لَمّا طلب منه المشركون الإتيان بغير القرآن أو تبْديله كما في الآية:﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـــذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٢] يُلَقِّنُه الله تعالى الجواب لِيَعمّ كلّ معصيَة أو مخالفة لأَمْرِه:﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِـــي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَـــافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣] نعم، فالعِبرة بالعبادة الخالصـــة، الـــمُسْتَسْلِمة من جميع الجوانب في غَيْر مَنٍّ ولا استِكثار، ولـــيس لأيٍّ كان مَهْما علا قدْرُه أن يستهين بالمعصيَّة لأجل أعمالٍ سَلَفت منه!.

---

١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

٢) سورة يونس، الآية ١٥.

٣) سورة يونس،الآية ١٥.

وخلف هذا التصوّر الحالِم آياتٌ مُتشابهة قد توحي به، وترسّخه في القلب متى لا يُتدبّر القرآن كلّه ليُحتكم إلى مُحكماته:﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[1].

فآيات عدم الانتفاع بالعمل الصّالح مع عدم التّوبة من كلّ المعاصي نَصّية في المراد على خلاف التي يُتمسّك بها في موضوع المُوازنة فهي مُحتملة، ويمكن الجَمْع بينها بكلّ يُسْر -كما سنرى-، والمُلاحَظ أن آيات الموازنة أقلّ انتشاراً في القرآن، والعَجَب أنّها أكثر وُروداً في ذِهن كثير من الناس من غيرها!.

فمِن آيات المُوازنة قوله تعالى:﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

١) سورة آل عمران، الآية ٧.

فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾[1]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[2]،﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[3].

فأوّلاً: يُلاحظ أن هذه الآيات جميعها قد جاءت في سُور مكّية، وثانياً: إذا عُدنا إلى سِياقها فهي عامّة تُقسِّم النّاس جميعا إلى صِنفين: صِنفٌ ثَقُلت مَوازينه، وصِنفٌ خَفَّت مَوازينه؛ مِمّا يعني دخول المُشرك فيها، مع أنّ من يقول بالمُوازنة إنّما يحصِرها في المُوحِّد العاصي؛ إذِ المشرك بصريح الآية تُحبَط أعماله، وثالثا: جَعْل الموحِّد العاصي مهما قِيل عن كثرة أعماله ضِمْن من ثَقُلت موازينه يُوقِعنا في إشكالٍ كبيرٍ مع الآيات السابقة الناصة

١) سورة الأعراف، الآية ٨.

٢) سورة المؤمنون، الآية ١٠١.

٣) سورة القارعة، الآية ٦.

على لحوق الوعيد به، ورابعا: هذه الآيات لم تَنُصّ على الكثير مما قد استقَرَّ في الأذهان عن الميزان، فَلَم تذكُر المقارنة بين شيئين ورجحان أحدهما على الآخر، و لم تَنُصّ على ماهية تِلكُم الموازين؟، وما الذي تَزِنه؟، وهل للمرء ميزان واحد ذو كفّتَين أم موازين مُتعدّدة؟، وإذا كان يَزِن الحسنات والسّيئات، فكيف يَتمّ ذلك وهي أمور معنويّة؟، وغير ذلك من الأسئلة.

ولو حَمَلنا ثِقْل الموازين وخِفّتها في تِلكُم الآيات على عِظَم القَدْر وعَدَمِه، فيَكون ذلك من باب الكِناية لم يكن ذلك بعيداً، والقرآن الكريم قد استعَمل الثقل بهذا المعنى، كما في قوله تعالى:﴿يسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١)، وكما استعمل الوَزْن بمعنى القيمة والاِعْتبار، كما في قوله تعالى:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(٢)، وبهذا الحَمْل نَسلَم من التّعارُض مع الآيات

١) سورة الاعراف، الآية ١٨٧.

٢) سورة الكهف، الآية ١٠٥.

السّابقة، فيكون المسلم التّائب من مَعاصِيه وذُنوبه ممن ثَقُلت موازينه، كما يكون غيرُه ممّن أَصرّ على معصية الله والكفران بنِعَمه ممن خفّت موازينه، وتقسيم النّاس في كل آيات القرآن إلى قسمين؛ يدفعُنا أيضا إلى هذا الحمل.

* * * * *

الشفاعة:

والمقصود شفاعة المصطفى ﷺ للعُصاة يوم القيامة -فِيما يُتصوّر- وهذه الأُمنيّة أيضا كثيرة الاِنتِشار في المسلمين، ومفادُها -كما هو مقرر-: أن يَتدخّل الرّسول ﷺ يوم القيامة فيَشفَع للعصاة من أُمّتِه فلا يَدخلون النّار أصلاً، أو يُنقِذُهم منها بعد دُخولهم فيها، ويكون مصير الـمُوحِّدين جميعاً الجنّة!. ولا ريب أنّ الشُعور بوُجود هذه الشّفاعة أو احتمالها تُلقي بشيءٍ من الأَمان في قلب العاصي الـمُصرّ مع إتيانه بجُملة التّوحيد "لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله"، وأيضاً لا يَخْلو هذا التّصوّر من التّعارُض مع آيات الوعيد في القرآن السالفة الذكر، فكيف يَتوعّد الله تعالى العُصاة أشدّ الوعيد؛ ثُمّ يكون ثَمّة

من يُنقِص منه أو يُلْغيه! ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾[1].

ولِشرح هذه المسألة نُبيّن أوّلاً وظيفة الرّسول ﷺ في أُمّته، وثانيا تَناوُل القرآن موضوع الشّفاعة وعَرْضه..

أ- وظيفة الرّسول ﷺ:

الله تعالى في القرآن الكريم لَم يجعل مُهمّة الرّسول ﷺ تَتعدّى معنى التّبليغ والإنذار والنُّصح لهذه الأمّة والاستغفار للمؤمنين -كما سيأتي بيانه-، والآيات في تَقرير هذا المعنى من الكَثْرة بمكان، واللاَّفت للنّظر: أنّ هذا التّقرير جاء بأُسلوب الأَمْر من الله تعالى لرسوله ﷺ لِيُبلِّغ ذلك لأُمّته، أفلا يكون في ذلك ما يؤكّد على انحصار مهمته في تلك المعاني، ويقطع الطمع فيما قد يتصوّره العاصي في صالحه؟ بلى. ففي آية:

1) سورة الزمر، الآية ١٩.

ففي آية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1] ميزَة النّبوة في وُجُود الوحي الذي يَتنزَّل عليه ﷺ ويأمُره بتبليغ التّوحيد، وإلاَّ فهو بَشَر كغيره، لا يَملك من أمر غيره شيئاً، وعليه فلا بُدّ من العمل الصالح الخالي من الإشراك بأيِّ أحدٍ في العبادة.

وفي أُخرى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾[2] فَليس إلاَّ البلاغ عن الله تعالى، ولا يَملك ﷺ ضرّاً ولا رَشَداً، وعليه فالعِصيان لله تعالى ولرسوله ﷺ والإصرار عليه يُؤدي لا محالة إلى النّار والخلود فيها..

1) سورة الكهف، الآية ١١٠.

2) سورة الجن، الآية ٢١.

وفي أخرى:﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١) تحديدٌ لِمُهمّته ﷺ فلا تتعدّى البلاغ إلى الحساب، بل الحساب لله تعالى، ثم لا مُعقِّب لحكمه.

وفي أخرى:﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢) دعوة إلى الإنذار وخفْض الجناح لِمن اتّبع من المؤمنين، لكن مع عِصيانِهم لا بد من البراءة مِن أعمالهم.

وفي أخرى:﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم

١) سورة الرعد، الآية ٤٠.

٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

بِوَكِيلٍ﴾(١) نَفي الوكالة على أيٍّ بعد إنزال الكتاب بالحق، واهتداء مَن اهتدى أو ضلاله.

وفي أخرى:﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٢) عندما يَحِقّ العذاب فلا مَنجاة للظّالمين من سُوئه، ولو افتَدَوا بما في الأرض ومثلَه معه.

ونَختم هذا العَرض اليَسير بهذه الآية المُتوعِّدة لمن نَسُوا الذّكر، فسيأتي اليوم الذي يُقِرّون فيه بأحقّية ما جاءت به الرّسل، ثم يَبحثون عن شفعاء لكن دون جدوَى:﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا

١) سورة الزمر، الآية ٤١.

٢) سورة الزمر، الآية ٤٧.

بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾(١).

ب- معنى الشفاعة:

هي أن يَتوسّط الشافع لدى الـمَشفوع عِنده لأجل قَضاء حاجة المشفوع له، وإذا تعلّق الأمر باليوم الآخر، لم تتعلّق الحاجة بغير العفو والمغفرة، سواء بالتّجاوز عن المعصية ومغفِرتها لِـمَن لم يَتدارك أمره في الدّنيا، أو بِقَبول التّوبة وغفران المعصـيَة بالنِّسبة لِـمَن تَدارك أمره في الدّنيا.

والإِعتبار الأوّل: مَدفوع بآيات القرآن العامّة الـمُتكرّرة المؤكّدة وهي كثيرة، ومفادُها: أن ليس لأيٍّ كان أن يتعلّق مع عصيانه وعدم تَقواه بالشّفاعة، أو ينتَظِر قَبولا لها من أيٍّ وليٍّ أو نصيرٍ أو شفيعٍ، ولقد حُذِّر من ذلك بَنو إسرائيل، كما نَجد في هاتين الآيتَين مِن سورة البَقرة:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي

١) سورة الأعراف، الآية ٥٢.

أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(١)، وفي الأخرى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٢)، فالخِطاب نفسه في الموضعين مع تقديم وتأخير يسير، وهو قاض بغَلْق أيَّ منفذٍ للنّجاة سواء بالشّفاعة أو غيرها مع عدم اتّقاء ذلك اليوم، ولا يَكون اتّقاؤه بغير الاستعداد له بالتّخلُّص مِن كلِّ أثرٍ لِلمعصيَة.

ولا يُقال بأنّ الخِطاب خاص ببني إسرائيل، فمَجيئه في القرآن الكريم دعوة للمؤمنين من هذه الأمّة إلى الاعتبار أيضاً -كما سبق-(٣)، كما أن يوم القِيامة غيرُ خاصٍّ ببني إسرائيل.

١) سورة البقرة، الآية ٤٧.
٢) سورة البقرة، الآية ١٢٢.
٣) انظر: ص٢١.

على أنّ الخطاب قد وُجِّه صريحاً في السورة نفسها إلى المؤمنين خاصّة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١]، وعندما يَجتمع وصف الإيمان والتّحذير من عدم الشّفاعة لا يبقى في الأصل أيُّ مُتعلّق؛ لأنّ مَن يرجو هذه الشّفاعة إنّما يَرجوها لأجل حُصول (الإيمان)، وتَعقيب الآية بِذكرها "الكافرون" وأنّهم هم الظّالمون، لا يُلبِّس علينا الأمْر؛ إذِ الكفر في القرآن نفسه غير محصور في الشِّرك، بل يَشمل كفر النِّعمة[٢] من ركوب المعاصي، كما يُفهم من كثير من الآيات ويَلزم منها.

وإذا كان الأمر بهذه المنزلة أمْكن لنا فهم الكثير من الآيات التي قد تَشتبه على بعض النّاس، وقد تُؤوَّل تأويلا مُتعسِّفاً، بعيداً كلَّ البُعد عن روح القرآن الكريم، فمِن ذلك قوله تعالى:﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ

١) سورة البقرة، الآية ٢٥٤.

٢) ويسميه البعض: كفر دون كفر، ولا مشاحّة في المبنى إذا اتفق المعنى.

وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[١] فالآية -كما هو مَنهج القرآن في كثير من المَواضِع- قَسّمت النّاس في ذلك اليوم قِسمين: المتّقين والمُجرمين، فالأوّل إلى الرّحمن وفداً، والثّاني إلى جهنّم ورداً، ثمّ أَتْبعت هذا القِسم بما يُفيد عدم استحقاقه للشّفاعة، إلاّ لِمن اتّخذ عند الرّحمن عهداً، ومِن الغريب جدًّا أن يُحمل هذا العهد على مُجرّد النّطق بالشّهادة والِاعتراف بـ(التوحيد)!، فَأَيْن سيُلقى بوعيد الله تعالى على أهل مَعاصيه في كامل القرآن، على أنّ هذه الآية قد نَفت أن يَنال عهدُ الله الظّالمين:﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢].

ومِن ذلك قوله تعالى:﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٣] وإذا تعلّق الأمر

١) سورة مريم، الآية ٨٦.

٢) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

٣) سورة طه، الآية ١٠٩.

بالِانتفاع بالشّفاعة لم يَكن الإذن من الرّحمن لِغير مَن رَضِي له قولاً، ولا يُتصوَّر تَناقُض إذْن الرحمن الأَزَلي مع وَعيده المُتقدِّم، فبذلك نَفهم مَن ذا يَرضى له قوله، ونفهم قوله تعالى:﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[١].

ويُؤكِّد ذلك أيضاً مَا جاء مِن أنّ الشّفاعة إنّما هي لله جميعاً، وهذا ردّاً على من اتَّخذ شُفعاء مِن دون الله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢]، وإذَا كانت له تعالى جميعاً، لَم تَتعارَض مع توجيهاته المُوعِدة لأهل مَعصيَّته في كامل القرآن﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

١) سورة سبأ، الآية ٢٣.

٢) سورة الزمر، الآية ٤٤.

٣) سورة الزخرف، الآية ٨٦.

ثُمّ إنَّنا نَجد في القرآن أيضاً نَفياً صريحاً لِأيِّ شفاعة قد تَحصل لِلظّالمين، كما في هذه الآية التي جَعلَت النّاس قِسمين:﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[١]، ونَفْي الوَلِي والنَّصير نَفْي للشَّفيع وقد نُفِي عن الظّالمين في هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٢]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[٣].

ومِن التَّعسُّف مُحاولة حَصْر الظّلم في الشّرك، مع أنّ القرآن الكريم لا يَحصُره فيه، كما في الآية:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ

١) سورة الشورى، الآية ٨.

٢) سورة غافر، الآية ١٨.

٣) سورة الشورى، الآية ٤٤.

الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١)، فَكُل عدم توبة مِن مَعصيَّة ظُلْمٌ، دون أَن نَنْفي أنّ الظُّلم درجات وأَعظَمُه الشِّرك بالله تعالى، كما في وصيَّة لُقمان الحكيم لِابنه:﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

ونحن إزاء جميع ما تَقدَّم بحاجة إلى فَهم الشّفاعة من جديد، فَهْماً يَنسجم مع تَصوُّرات القرآن الكريم عن المصير؛ فهو النّاطق الشرعي الأصيل عنه، وعليه يُعرَض كل تَصوُّر انتُزع مِن غيره، لِذلك فَـ:

الِاعْتبار الثّاني: -وهو أَن تَكون الشّفاعة منهﷺ بمعنى الدّعاء بِقَبول تَوبة العبد وغُفْران ما صَدَر مِنه مِن مَعصيَّة- هي التّي تَتعيَّن في مِثل هذا المَقام، ويُحمَل عليها ما سَبَق.

١) سورة الحجرات، الآية ١١.

٢) سورة لقمان، الآية ١٣.

فنَجد أنّ الله تعالى يخاطب رسولهﷺ بقوله:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١) فَقَد عُلِّقَت تَوبة الله تعالى ورحمته لِأُولئِك باستغفارهم لله تعالى أوّلاً، ثُمّ بمَجيئِهم إلى الرسولﷺ لِيَستغفِر لَهم ثانيّاً، فَنرى أنّ مُجرّد استغفار الله تعالى لا يَكفي في حقِّ أُولئك الذين ظلموا أنفسهم لِقَبول تَوبتهم.

وأَمْر الله تعالى وإِذْنه لِرسوله ﷺ لِيَستغفر لِلمُؤمنين مما وَرَد في آيات كثيرة، مِن ذلك قوله تعالى:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٢)، وقوله تعالى:﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

١) سورة النساء، الآية ٦٤.

٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[1].

هذا، دون أن نّذهل عن الوَصف الحقِيقي للمُؤمن الذي يَستحِقّ ذلكم الاستغفار، كما نصت هذه الآيات البَيِّنات ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾[3]، ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[4].

---

١) سورة محمد، الآية ١٩.

٢) سورة النور، الآية ٥٢.

٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

٤) سورة النساء، الآية ٦٥.

ومَن كان بتلك المَنزلة يَستحِقّ الدّعاء بالمغفرة وقَبُول التّوبة مِن الملائكة الكرام حَمَلة العرش -عليهم السلام- أيضاً، كما في قوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

والمَغفِرة أوّلاً وأخيراً هي لِله تعالى﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[2] يَأذن بها لِمَن يَشاء، ولا يَأذن بها إلاَّ لِمن رضِي له قولاً وقال صواباً ولَم يَشفع إلا لِمَن ارتضى، ولا يَرضى الله تعالى عن فاسق ولا ظالِم ولا كافر﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[3].

---

١) سورة غافر، الآية ٨.

٢) سورة المدثر، الآية ٥٦.

٣) سورة الشورى، الآية ٤٤.

* * * * *

المشيئة:

والمعنى المقصود هُنا والذي يكون أُمنيّة توهم الرجاء والأمان حين ارتكاب المعصيَة هو: دَعْوى أنّ أهل المعصيَّة الذين مَاتوا مُصرِّين عليها دون توبة مِنها قد يُغفر لهم ويكون مَصيرُهم الجنّة ، فأَمْرهم إلى الله تعالى إن شاء عذّبَهم وإن شاء غَفَر لهم! وهذا على خِلاف ما تُفيده آيات القرآن الكريم مِن الجزم في مَصيرهم إن أصروا على عدم التوبة، وهو ما يَقتَضيه صِدق الله تعالى في وَعْده ووَعيده، مع استحضار عدم الجزم بهلاك أحدٍ بعينه -مهما ارتكب من معاصٍ-؛ لأمر واحد أننا لا ندري لعلّه تاب مِن مَعاصيه قبل موته و لم نطَّلع على تَوبَتِه.

والمشيئة بالمعنى الأوَّل تَتَعارض مع كلّ ما سَبق بَيانه مِن استِحقاق العاصي الذي لَم يَتخلَّص مِن مَعصيَّته لِعذاب الله تعالى في اليوم الآخر، كما تَتَعارض مع الآيات القاضِيَة بأنّ المغفرة إنّما تكون مع حُصول التَّوبة -كما سنرى-، ولا ريب أنّ مَنشأ هذا

التَّصوُّر أيضاً هو الِانسياق مع الرِّوايات مع آحاديَّتها ومعارضتها لِنُصوص القرآن الكريم، وكذا اتِّباع (الـمُتشابه) مِن الكتاب أو عدم فَهمِه الفهم الدّقيق الذي يَنسجم مع تَصوُّر المصير وما فيه من الوعيد.

فَبداية لابُدّ مِن التَّسليم بأنّ مَشيئة الله تعالى مُطْلَقة وقُدرته لا تُحد﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(١)، و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾(٢)، و﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾(٣)، ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٤)، ويجب الإيمان بهذه المعاني كُلّها إيماناً لا يَشُوبه ريب، ولا يَعلُوه كَدَر، ونَعتَقد مع ذلك أنّ الله تعالى حَكيمٌ خبيرٌ في جميع أفعاله وأحكامه، سواءٌ أَأدركنا الحكمة أم خَفِيَت علينا، فإن خَفيَت

١) سورة الحج، الآية ١٨.
٢) سورة المائدة، الآية ١.
٣) سورة الرعد، الآية ٤١.
٤) سورة الأعراف، الآية ٥٤.

قُلنا في استِسلام مِثل قول الملائكة الكرام: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[١].

لكِن، لابُدّ من التَّنبّه لِمدخل إبليس اللعين في هذا الأمْر، حتى لا يؤدي إطلاق المشيئة -الذي هو من خصائص الله تعالى- إلى إلغاء ما قرره الله تعالى في كتابه من وعد ووعيد، فنحن بحاجة لِفَهم موضوع المَشيئة في القرآن الكريم، لِئلاَّ يَلتبس علينا أمْرها، سواءً مَشيئة الله تعالى المُتعلّقة بوعده ووعيده أو غيرها، ونَعتقد أنّ الله تعالى فيها جميعاً مُنزَّه عن الظُّلم والعَبَث انطلاقاً من فَهْم الآيات نفسها.

وَرَدت مَشيئة الله تعالى مُطلقةً في كثير من الآيات، ونَكتفي بِقوله تعالى:﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[٢] فَهَل معنى ذلك عدم تَقيُّدها بما تقتضيه الحكمة؟، كما وَرَدت مشيئة العبد أيضاً مُطلقة في آيات،

١) سورة البقرة، الآية ٣٢.

٢) سورة الإسراء، الآية ٥٤.

كما في قوله تعالى:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[١]، فهل مع ذلك يُمكن أن يُقال بأنّ العبد مُجبَر على فعله؟، كما وَرَدت المشيئة أيضاً مُحتَمَلَة، فقد تكون مَشيئة الله تعالى، وقد تكون مَشيئة عَبده كما في الآية:﴿فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وهذا التَنوُّع في وُرود المشيئة يَجعلُنا نَنْتبه، ونُحاول التّمييز بَينها سعياً إلى الوُصول إلى مَفهوم صحيح جامع لها على اختلاف أنواعها، ولا إشكال في مَشيئة العبد؛ إذ الأمر فيها آيلٌ إلى اختِياره وهو حُرّ في ذلك -كما سبق في الآية-، لكنّ الإشكال قد يُصادِفُنا في المشيئة الإلهيَّة من حيث ما قد يُفهم منها، وهي لا تَخلو إمّا أن تكون مَشيئةً مُطلقةً كما قد يَتبادر من إطلاقها في آيات، وإمّا أن تكون مُنضَبِطة مُقيَّدة بِقانون ما، تَتَجلى فيه الحكمة الإلهية.

١) سورة الكهف، الآية ٢٩.

٢) سورة إبراهيم، الآية ٤.

فَمَع المشيئة العشوائية نَقَع في إشكالاتٍ كبيرةٍ، تُؤدي إلى وَصْف الله تعالى بِمَا لا يَليق بجلاله وكماله، فمَثلاً الله تعالى في كثيرٍ مِن الآيات يقول:﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء﴾[1]، هل معنى ذلك أنّ الله تعالى يمكن أن يُعذب المُتَّقي ولو لم يَفعل شيئاً؟! أو العاصي ولو أنّه تاب مِن ذنبه؟!، وهل معنى ذلك أيضا أنّه تعالى قد يُتصوَّر منه أنَّه يَغفر لِلكافر ولو لم يَتُب، أو لِلعاصي ولو تَحدَّى الله بعصيانه؟! ذلِك كلّه ما يَلزم من يتعلَّق بالمشيئة على إطلاقِها دون مُحاولة لِفهمها بما تَقتضِيه الحكمة الإلهيَّة المنزَّهة عن الظُّلم والعَبَث.

ونحن لا نحتاج إلى طُول نَظر وعُمق تَفكير لِفهم المشيئة الإلهيّة، ففي الآيات البيِّنة ما يَهدينا إلى ما يُوقِفنا على تَقييد المشيئة، وأنّها تَخضع لِضوابط وشروط، تَدُور معها وجوداً وعدماً، كيف ذلك؟، الله تعالى يقول:﴿وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾[2] إطلاق المشيئة في الآية، قد يُفهم منها أنّها

١) سورة المائدة، الآية ٤٠.

٢) سورة آل عمران، الآية ١٣.

اعتِباطيّة، لا يَتعلّق الأمْر بغير تدخُّل المشيئة في جميع الأحوال؛ ويَأْبى الله تعالى أن يكون الأمْر كذلِك، فقد قال في آية أخرى:﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فالنّصر حليف المؤمنين كما وَصَفهم الله تعالى في كتابه -وقد سَبَق ما يَدُل على صِفتهم- لاَ غير، وفي آية أخرى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2] نَعَم، فليس أيٌّ كان مُستحِقّاً للنّصر، ما لم يكن في نفسه يَسعى لِنُصرة دِين الله تعالى، وفي مَعنى هذه الآية الكريمة خِطابُ الله تعالى لِلمُؤمنين في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

والله تعالى يقول عن الحالة التي سَيَكون عليها الخَلق يوم يُنفَخ في الصُّور:﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[4] فَهَل معنى ذلِك

١) سورة الروم، الآية ٤٧.

٢) سورة الحج، الآية ٤٠.

٣) سورة محمد، الآية ٧.

٤) سورة النمل، الآية ٨٧.

عُموم هذا الفزَع لِكلّ النّاس، بَرّهم وفاجرهم؟، ذلك ما تَمَّ تَوضيحه بَعْد آية واحدة فقط، أَيْن قال تعالى:﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[1].

وهكذا الأمْر في كثيرٍ من إطلاقات القرآن الكريم، فقد شاء الله تعالى أن تكون مَشيئته مُنضبطة ومُقيَّدة ضِمن قانون تَسير وِفْقه بعيداً عن العَفوية والاعتباطيّة، وإذَا تعلّقت هذه الـمَشيئة بالمغفرة والهِداية والتعذيب والإضلال لم تَخرج عن أسبابٍ هي مِن اختيار العبد واصطِفائه -كما سنرى-، وهذا بَعد أن مَنحه الله تعالى الحرِّية التامّة والِاختيار الحرّ:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[2]، ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[3]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[4].

١) سورة النمل، الآية ٨٩.
٢) سورة الكهف، الآية ٢٩.
٣) سورة الفرقان، الآية ٥٧.
٤) سورة التكوير، الآية ٢٧.

وإزاء هذا الِاختيار الحُرّ ، نَجد أنّ الله تعالى قد بَيَّن ما يَرضاه من عِباده: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[1]، ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[2]، فَلا رِضا له عن كُفر، ويَرضى عن الشُّكر، ومَع الشُّكر مِن العبد لا مَعنى للتّعذيب ولاَ يَفعله تعالى.

ثُمّ إنّه تعالى مع ذلك أيضاً؛ لم يُجبر النّاس على الإيمان مع أنّ ذلك لا يَخرج عن مَشيئته وقُدرته لو أراده، قال تعالى:﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3]، وأخرى:﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى

١) سورة الزمر، الآية ٧.
٢) سورة النساء، الآية ١٤٧.
٣) سورة يونس، الآية ٩٩.

فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١]، وأخرى:﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[٢].

وإذَا حَصَلَ الِاختِيار الحرّ من العَبد كانت مَشيئة الله تعالى تَبعاً له، وهذا من تَمام عَدْله ورَحْمته، ففي جانب الهداية:﴿اللّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٣]، وأيضاً﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[٤]، وفي جانب الإضلال:﴿وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء﴾[٥]، وأيضاً﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[٦]، وأيضاً﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾[٧]، وفي جانب المغفرة:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ

١) سورة الأنعام، الآية ٣٥.
٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٧.
٣) سورة الشورى، الآية ١٣ .
٤) سورة طه، الآية ١٢٣.
٥) سورة إبراهيم، الآية ٢٧.
٦) سورة غافر، الآية ٣٤.
٧) سورة غافر، الآية ٧٤.

اهْتَدَى﴾[١]، فالآية تُقيِّد كلّ إطلاق لِلمغفرة في القرآن الكريم، وفي جانب الرّحمة:﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢]، ومِن الواضح أنّ الرّحمة لا تَنال الظّالمين فلا مَطمَع لهم في رحمة الله﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

ونَخرج مِن ذلك كلِّه بخُلاصة هي أنّ العبد حُرّ في اختِياره، وإذا اختار كانت مَشيئة الله تعالى تَبعاً لاختِياره عَدْلاً من الله ورَحْمَة، وذلك أيضا مُقتضى ما تُفيده هذه الآيات:﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٤]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥] ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٦]، ﴿فَأَمَّا مَن

١) سورة طه، الآية ٨٢
٢) سورة الشورى، الآية ٨.
٣) سورة الحجرات، الآية ١١.
٤) سورة الرعد، الآية ١١.
٥) سورة الأنفال، الآية ٥٣ .
٦) سورة البقرة، الآية ٢

أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[1].

وعَدَم التِزام ما جاء في القرآن الكريم يُوقِع في تَصوُّرات باطلة، مِنها مَا جَاء عَلى لِسان المشركين:﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[2]، وأيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[3]، ومَا حُذِّرت به كلّ نَفس مِن قوله يوم الحَسْرَة:﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ

١) سورة الليل، الآية ٧.

٢) سورة الأنعام، الآية ١٤٨.

٣) سورة النحل، الآية ٣٥.

تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1]، وما قاله الخَلف من بني إسرائيل طمعاً في مَغفرة الله دون مقابل ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[2].

فهل بَعد هذا التّوضيح يَبقى مجالٌ لتَصوُّر عَفويَّة المغفرة الإلهيَّة واعتِباطها؟!، وهل ستَبقى الآيتان اللّتان في سورة النِّساء مَحلّ إشكال، وإن كان السِّياق في الموضِعين قد جاء لِدَعوة المشركين وأهل الكتاب إلى الإسلام والتّخلّي عما هم فيه وعليه من الكُفر؟، فلْنُعِد النّظر مع استحضار السِّياق.

قد سُبق الموضِع الأوّل بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ

١) سورة الزمر، الآية ٥٦.

٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٩.

وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾[1]، ثُمّ جاء التَّعقيب على ذلك:﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2].

وسُبق الموضع الثَّاني بقوله تعالى:﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[3]، ثُمّ جاء التّعقيب على ذلك بقوله تعالى:﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[4].

إلى هنا، نُدرك أنّ المشيئة بالمعنى الأوَّل -كما في المَدخَل- لا أصْل لها واضِحٌ في القرآن الكريم، ولَعلّ مَنشَأَه -أي ذلك المعنى- سُوء فَهْمٍ لِكلام سَلَف في ذلك، ثم وُجِد مِن بَعد مَن

١) سورة النساء، الآية ٤٧.
٢) سورة النساء، الآية ٤٨.
٣) سورة النساء، الآية ١١٥.
٤) سورة النساء، الآية ٤٨.

حاوَل تَأصيله، وَوَجَد من التّشابُه في بعض الآيات سبيلاً لإثباته، في حين أنّ أُولئك السَّلف إنَّما قَصدوا المعنى الثَّاني، دون أن تُذهَل دائماً عن تَأثير الرِّواية، وما فيها مِن مُلاحظات وما تَجُرّ إليه تَبعاً لِذلك مِن مَحاذير، والغَفلة مع ذلك كلِّه عن ضَرورة الرُّجوع المُستمر إلى الكتاب المبين لِمُحاكمة الرِّوايات وأقوال الرِّجال إليه، خاصّة في هذا الأمر الغَيْبي الذي لا تَختلف فيه الرِّسالات جميعا.

* * * * *

تلخيص وتنبيه:

إجمالا، نَصل إلى حقيقة يَقينيّة وهي: لاَ مَطمع لِلعاصي المُصِرّ في النَّجاة من النَّار لا بِكثرة أعْماله ورُجحانها على سَيِّئاته -فيما يُتَصوَّر-! وَلاَ بشفاعة شافِع أيّاً كان، ولو كان الرَّسول ﷺ، وَلاَ باحتِمال أن تَشمَلَه مَغفِرة عَفْويَّة يَحظى بها!..لاَ نَجاة له بِشيء مِن ذلك إلاَّ بعمَله، والآيات السَّالِفة قد أكدّت هذا المعنى.. نَعم، لاَ نَجاة له إلا بِتوبة صادِقةٍ خالِصةٍ تَصدر منه قبل مَوته، وهذا هو

الـــمَنفذُ الوَحيد وفَقَط للنَّجاة مِن النَّار، والإبتِعاد عن غَضَـــب الله تعالى وسَخَطِه، وهو مُقتضى معنى التَّقوى الذي كَثُـــر وُرُوده في آيات الذِّكر الحكيم.

وهذه الأماني الأربع هي الأَكْثر انتِشَاراً وحضوراً في عقـــل المسلم ووُجْدانه، ولا نَرتاب أنَّها خَلْف الكثير مِن الشُّـــرور الـــتي تَنْخُر جسد أمَّة الإسلام، ووراء التَّخلُّف الذي سَرَى في كِيانها ولا يَزال.. وشُعور العاصي بالأَمن والرَّاحة مع ما قدَّمت يَداه.. يَكفي دليلاً على مَصدرها الشَّيطاني﴿قُلْ إِنَّ اللّـــهَ لاَ يَـــأْمُرُ بِالْفَحْشَـــاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١]، وإذا كان الله تَعالى لا يَـــأمُر بالفحشاء فَهُو أيضاً لا يُعين عليها، وإنَّما الأمر بها والإعَانة عليها، والدَّعوة إلَيها مِن عَمَل الشَّيطان لَـــمَّا تُتَّبَع خُطْواتـــه، ولـــذلك حُذِّرنا:﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّـــبِينٌ إِنَّمَـــا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، ونُلاحظ في الآيتين: كيف أنّ الأَمر الإلهيّ على العكس مِن الأمـــر

١) سورة الأعراف، الآية ٢٨.

٢) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

الشَّيطاني، ثُمّ إنّ الِانتِقال مِن الأمْر الأوّل إلى الأمْر الثَّاني لا يَحتاج إلى أكثر مِن (القول على الله بِغير عِلم) كما في الموضِعين، وبِهـــذا أيضاً نجد أن الله تعالى لم يَترك هذه المسائل لِـــ: (الظّن) بل أتى بما يُفيد (العلم) فيها أي اليَقين.

وذِكرُنا لِهذه الأماني الأربَع لا يعـــني أنّ أمـــاني الشّـــيطان مُنحصِرة فيها، فَخُطّته تَتّسِع لأكثر مِن تلك الأماني، ولعل الضَّابط فِيها هُو-كما سَبقَت الإشارة في مَواضع-: "كُلّ ما أشْعَر العاصي بالأمن مِن مَكر الله تعالى، فَيَدفعُه إلى ارتِكاب ما يَعلم أنَّه مَعصيَّة"، وعلى هذا فَمِمَّا يَدخل تحت هذا التَّعريف لِزاما، الشُّعور بِفُسْـــحَة الأجل فتُرتكب المعصيَّة على أَمَل التَّوبة مِنها في المستقبَل، وهـــذه أُمنيَّة مَن لا أُمنيَّة له، فَإذا تَيَقَّن العبد من أنّ المعصيَة لا تُمحى بغير التَّوبة النَّصوح، أتاه الشَّيطان مِن هذا الـــــمَدخل، فَيدفَعُـــه إلى ارتِكاب المعصيَّة، وهو يُشعِره بفُسحة الأجَل مِمّا سَيتمكّن معه مِن التَّوبة مُستقبَلاً! وقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَـــقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١] يَقتَضي أن يكون العبْد في

١) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

جَميع أحواله تَقِيّاً مُسلِما؛ وذلك بالحرص علــى الــتَّخلُّص مِــن المعصيَة بالتوبة مِنها؛ إذْ لا يَدري مَــتى يَفْجَــؤه ريــبُ المنــون، والــمَوت لا يَخضَع لِعادات معيَّنةٍ، ولا تَــتَحكَّم فيــه ظُــروف مُنضَبطة فَلِم الغُرور إذاً؟!.

مفاهيم يجب أن تصحح:

١ - ما الرحمة الإلهية ولمن؟:

بَعد كُلّ ما سَبق قد يَقول قائل:"إنّ في الأمرِ تَشديداً يَتَنــافى مَع وَصْف الله تعالى بِالعَفُوِّ الرَّحيم، فَكيف يَأخُذ عبْده بمعصــيَّة صَدَرت مِنه، وهل يَظهَر عَفوُ الله تعالى وتَظهَر رَحمته إلاَّ في مِثــل هذا الأمْر.." والجواب: عَلَينا أن لاَّ نُحكِّم أفعــال الله تَعــالى إلى أذْواقِنا، ونَقيسَها بما يَصدُر مِن المخلوق الضَّعيف، بَل عَلينــا أن نَسْتَسلِم استِسْلاماً لِحُكمه وقَضائه، وألاَّ نَتَجاوز ما دلَّــت عليــه نُصوص كِتابه العزيز عن مَعنى الرَّحمة ومَن يَستَحقُّها.

وابتداء، لا بُدّ من بَيان نُقطةٍ في غاية الأهَمِّية، وهــي أنَّ الله تَعالى لا يَأخُذ عبده بمعصيّته لِمُجرّد أنّه عَصى، وكان بإمكانه فِعلُ ذلك:﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ

يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾[٢].

بَل لَقد أرسَل الرُّسل مُبَشِّرين ومنذرين، وأنزَل معهم كُتُباً، فَبَيَّنوا ما فيها وذَكَّروا به، لكنّ الإنسَان هو مَن يَختار الإعراض عمّا جاء فيها؛ فَلا يَمتثِل أَمْرها ونَهيَها، ولا يَقِف عند حدودها﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[٣]، ومِن الواضح جداً أنّ هذه الأَعْراض الـمَرَضيَّة التي تُصوِّرها الآية لا تَنحَصِر في المشركين، ومن بَخس هذه الآية حَقَّها حَصرُها فيهم.. نَعم، قد تَكون الآية نَزَلت في المشركين، لكِن مَا فيها مِن الجِدال بالباطل لِدحضِ الحَق، ومِن اتِّخاذ آيات الله

١) سورة النحل، الآية ٦١.
٢) سورة فاطر، الآية ٤٥.
٣) سورة الكهف، الآية ٥٧.

ونُذُره هُزُؤاً، ومِن الإعْراض عن آيات الله تَعالى حِين التَّذكير بها، ومِن تَجاهُل ما قَدَّمَت اليَد وعَدم تَدارُكه.. لَمِمَّا يَقَع فيه (الـمُوحِّد) يَقيناً كذلك، لِذلك فهو أيضا يَستَحِقُّ هذا الوعيد:﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[١]، وهذا أَمرٌ نَلمس له آثاراً في واقِع الـمُوحِّدين حتى لَيُشْتكى منهم ذلك!.

بَل ومِن رحمة الله تعالى بعباده أن يذيقهم ما يذكرهم بما أُوصُوا به، لِيَتَضرَّعُوا لِخَالقهم العظيم، ويَرجعوا إليه، فلا تَكون نَقْمتُه عَليهم إلاَّ بَعد إصرارهم وتَماديهم في غَيِّهم، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٢]، وهذا التَّدرُّج مع العُصاة مِمّا دلَّت عليه

١) سورة الكهف، الآية ٥٧.
٢) سورة الأنعام، الآية ٤٢.

آياتٌ كثيرةٌ، حتَّى لَيُمكن الخروج بِقاعدةٍ واضحةٍ منضَبطةٍ في التَّعامُل مع العاصي قَبل أَخذِه بِمعصيَّته بأن يُضيِّع ما أُتِيح لَه مِن فُرص.

بَعد بَيان هذا الأمر وإيضاحه.. نَعود أَيضاً إلى الآيات لِنَرى في أيِّ صُورةٍ تُعرض رحْمة الله تعالى عِندما يَتعلَّق الأمْر بالمَعصيَّة، ومَن ذَا الذي يَستَحقُّها؟، قال تعالى:﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، نَصّ صَريحٌ واضِحٌ لاَ غُبار عليه، لا يَرى رحمة الله تَتحقَّق إلاَّ بَعد التَّوبة مِن عَمَل السُّوء الذي ارتُكِب بِجَهالةٍ، حتَّى مَع أُولئك الذين يُؤمِنون بآيات الله تعالى، ويُؤمَر الرَّسولﷺ بالتَّسْليم عَليهم!.

وآيةٌ أُخرى تَقوم بِبَيان مَناط رَحْمة الله تعالى، وكيف تُعَمّ في الدُّنيا وتَخصّ في الآخِرة، ثُمّ تَقُوم أيضاً بِزِيادة شَرحٍ لِصِفة الذين

١) سورة الأنعام، الآية ٥٤.

(يُؤمِنون بآيات الله)، وقَد جَاءت عَقِب دعاءِ لِمُوسى عليه السلام بَعد إهلاك السَّبعِين الذين كانوا مَعَه بالرَّجفَة ﴿...قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، وإذَا كَتَب الله رَحمَته لِمَن كانت صِفتَه مَا في تِلكُم الآيات، فَهَل يُمكن لَنا أن نُمِدّ أنفُسنا بِصَلاحيَّة (التَّمْديد) و(التَّعْديل) بَل و(الإلغاء)!.

وأَوَّل صِفَة وَرَدت في تِلكُم الآيات لِاستِحقاق رحْمة الله تعالى في الدَّار الآخِرة هِي صِفة التَّقْوى﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٢]، وهِي صِفَة جامِعة لِكُل تَصرُّف

١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

يُحترَز به مِن الوُقُوع في سَخَط الله تَعالى وعَذابه؛ لِأنّ التَّقوى لُغَة: مِن الفِعل وَقَى، يَقِي، فَهُو مُتَّقِي. أَي جَعَل بَينَه وبَين الشَّيء المُتَّقَى مِنه حاجزاً، وإذَا تَعلَّق الأَمْر بِمثل هذا السِّياق، فَإنَّ المقْصود الِابتِعاد عَن كلِّ مَا يُوقِع في سَخَط الله تعالى وعَذابه وجعْل وقايَةٍ مِنه؛ ولاَ يكون ذلِك إلاَّ بامتِثال أوامِر الله تعالى ورَسوله ﷺ والِانتِهاء عَن نَواهِيهما، أَي بِالابتِعاد عَن المعصيَّة وقُوفاً عِند حُدودِهما.

والقُرآن الكَريم في بَيَان صِفة المتَّقي لَم يَبْتعِد عَن المعنى اللُّغَوي، وقد يُلاحَظ أَنّه أَضَاف له معنى المحافظة على غير الواجب، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1] جنَّة أُعِدَّت لِلمتَّقين، وإذَا شَارَكهُم فِيها غَيرُهم لَم يَعُد ثَمَّة مَعنى لِهذا التَّشريف، ومِن صِفاتِهم مَا نَحْن بصَدَدِه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] ولَيس مَعنَى ذلِك إلاَّ التَّوبة النَّصوح في غَير إِصْرار.

وفي آية أُخرى، والخِطاب مُوجَّه لِلرَّسول ﷺ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3] والأُسْلوب يُوحي بالـمُسارَعَة إلى تَدارُك الأمْر خُروجاً مِن مَسِّ الشَّيطان وظُلْمَتِه إلى نُور التَّوبة حيثُ البَصَر الحَقيقي.

وفي آيةَ أُخرى، وفي سِياق مَا زُيِّن لِلنَّاس مِن حُبٍّ لِلشَّهَوات، تَأْتي الآيَة لِتُبيِّن مَا هُو خير مِن ذلِك مِمَّا كُتِب لِلمتَّقين

١) سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

٣) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

في الآخرة:﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1]، ولا نعدم الصِّفَة التَّخلُّص من الذُّنُوب والمَعاصي في كلِّ حِين والدُّعاء لله تعالى بذلِك.

وهَكَذا، فَإذا ذُكِرت صِفات المتَّقين كان مِنها التَّوبَة مِن المعصيَّة، وإذا ذُكِرت الجنَّة لَم تَكُن لِغير المتَّقين -كَما سبَق في آيتَي آل عِمران-، وكَما يتبادر من الآيات:﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾[2]،﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾[3]،﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾[4]،﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[5]،﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[6]،﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

١) سورة آل عمران، الآية ١٥.
٢) سورة المرسلات، الآية ٤١.
٣) سورة القمر، الآية ٥٤.
٤) سورة الطور، الآية ١٧.
٥) سورة الحجر، الآية ٤٥. سورة الذاريات، الآية ١٥.
٦) سورة الدخان، الآية ٥١.

الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ﴾[1]،﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[2]،﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[3].

ومَا ذلِك إلا لأَنَّ قبُول الأَعمال في نِهايَة المطاف إنَّمَا يَكون مِن المتَّقين﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]، فَلاَ نَعجَب بَعد ذلك أن يُوَرَّثوا الجنَّة، وتُحصَر فِيهم دُون غَيرِهم﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[5].

١) سورة النحل، الآية ٣١.
٢) سورة النحل، الآية ٣٠.
٣) سورة محمد، الآية ١٥.
٤) سورة المائدة، الآية ٢٧.
٥) سورة مريم، الآية ٦٣.

وإذَا وُفِّقْنا لِإدراك هَذا الأمْر؛ أَمْكن لَنا أن نَّعرِضَه أيضاً مِن جِهَة أُخرى، وهي جِهَة الإنذار والتَّبشِير، لِنَتَساءَل أيضاً: الإنذار لِمَن؟، والتَّبْشِير لِمَن؟ وكيف عَرض القُرآن الكريم لهَذين المُصطلحَين؟ ومَا سِرُّ تَغليب الإنْذار على التَّبشير في كامِل القُرآن؟.

* * * * *

٢ - بين الإنذار والتبشير:

من أهم وظائف القُرآن الكَريم الإنذار﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[١]، وفي آية أُخرى﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢]، وفي أُخرى﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ

١) سورة الأنعام، الآية ١٩.

٢) سورة الأنعام، الآية ٩٢.

حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[١]، تُذكر هذه الوظِيفَة بهذه الصيغة الحاصرة؛ فَكَأَنَّما لَيس في القُرآن الكريم غير الإنذَار.

ومن أهم وظائف الرَّسولﷺ الإنذَار، كَمَا في هذه الآية الكَريمة التِّي خُوطِب بهاﷺ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[٢]، وكما في هذه الآية الكَريمة التِّي يُلَقَّن فيها الرسولﷺ جواب اقتِراح نُزُول آيات﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣]، وهكذا في كَثير مِن الآيات لَم نَتَعرَّض لَها هُنا، وكلُّها تنبهه ﷺ إلى هذه الوظيفة وكأنه لم يبعث بِغَيرها.

وأكثر مِن ذِلك نَجد أنَّ القُرآن الكَريم يُطلِق على المُرسَلين -عليهم الصلاة والسلام- اِسم "نذير" كمَا في هذه

١) سورة الشورى، الآية ٧.

٢) سورة هود، الآية ١٢.

٣) سورة العنكبوت، الآية ٥٠.

الآية الكريمة:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[١]، وغداً أَهلُ النَّار﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٢] يُجاب لَهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٣].

وبيان وَظِيفة القرآن الكريم والرُّسُل الكِرام -عليهم الصلاة والسلام- بهذه الصِّيَغ القَويَّة يوحي أنَّ الأَصْل في الدَّعوة هُو الإنذار، والإنذار لِلنَّاس جَميعاً، فَفِي مَطلَع سورة الفُرقان:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٤]، ولاَ يَكون الإنذار إلا مِن شَيء كَريه لِلنَّفسِ سَيِّء العَاقِبة:﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ

١) سورة سبأ، الآية ٣٤.

٢) سورة فاطر، الآية ٣٧.

٣) سورة فاطر، الآية ٣٧.

٤) سورة الفرقان، الآية ١.

يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾[١]، والسُّؤال الذي يَطرَح نَفسه بَعد هذه التَّوطِئة هُو: متى يَكون التَّبشِير ولِمَن؟.

والجَواب: فَمَادَام أنَّ من أُولَى وَظَائف القرآن والرُّسُل -عليهم الصلاة والسلام- الإنذار -كَمَا مَرَّ-، والإنذار لِلعالَمين أي لِلنَّاس جَميعاً، فمِن الطَّبَعِي أَن لاَّ يُتَصوَّر التَّبشير لِغير مَن استَفاد مِن الإنذار﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢]، وعِندما يكون الإنذار مِن عَذاب النَّار في القرآن الكريم تَكون في مُقابل ذلك بالضَّرُورة الدَّعوة إلى الجنَّة، ذلك أنَّه يُتصوَّر أنَّ مَن اتَّقى النَّار بأعمَاله -وقد سَبَق شَرح مَعْنى التَّقوى- يَكون مُؤَهَّلاً -بمشيئة الله تعالى- لِدُخول الجنَّة، غَير أنَّه لَو عَمِل عَمَل أَهل الجنَّة، لَكن دون احتِراز مِن عَمَل أَهل النَّار لا يَكون مُؤَهَّلاً لِدخول الجنَّة، فَمِن هُنا نَفهَم سِرّ التركيز على الإنذار وَظِيفَةً للقُرآن في كثير مِن الآيات، ولِماذا لاَ نَكاد نَجد آية في القُرآن تَجعَل مِن وَظِيفة القُرآن الكَريم أو رُسُل الله الكرام –عليهم

١) سورة إبراهيم، الآية ٤٤.

٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

الصلاة والسلام- التَّبشير دون اقتران بِالإنذار، إذَا لم يَنفرِد لفظ الإنذار.

وتَبْشير مَن استَفَاد مِن الإنذار وعَمِل بما يقتَضِيه قَد جاء في آيات، فَفي سِياق إنذار مَن لا يَستَفِيد منه، يُلْفَت انتباه الرَّسُول ﷺ إلى صِفة الـمُنتَفِع به، والآية:﴿وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[١]، فالتَّبشير بُشرى لِمَن لَم يَتَّبع غير الذِّكر ولَم يَخش غير الرَّحمن، وفي مَطلَع سُورة الكَهف نَتْلو الآية﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[٢] الإنذار مِن البَأس الشَّديد لا يُخَصّ به أَحَد دون أَحَد، لَكِن لاَ يَستَجيب غَير مَن اختَار لِنفسه الإيمَان والعَمَل الصَّالِح، فَهَؤُلاء فَقط هُم مَن يُبَشَّر بالأجر الحَسَن، واجتِناب الطَّاغوت اجتِناب لِلخُضوع لِأيِّ تَوجيهٍ أَرضِيٍّ لَم يَحظ

١) سورة يس، الآية ١٠.

٢) سورة الكهف، الآية ١.

بِرضا الله تعالى، وفي الـمُقابل خُضوع تَامٌّ لِأمر الله تعالى، ومَن كان هَذا دَأْبُه حُقَّ لَه التَّبشِير﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[١].

وقَد جاء في تَعبير القُرآن الكريم مَا يُشعر كَأَنَّ المقصود بالإنذار أُولئك فَحسب﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢]، غَير أنَّ الإنذار -كَما هُو وَاضِح- يكون دائِماً لِلكافَّة والـمُنتَفِع به أُولئك فَقط، وحَصْر الِانتِفاع فِيمَن كانت صِفَتُه الخَوف مِن الحَشْر، والخَشية مِن الله تَعالى نَتْلوه في هَذه الآية الكَريمة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٣].

١) سورة الزمر، الآية ١٧.

٢) سورة الأنعام، الآية ٥١.

٣) سورة فاطر، الآية ١٨.

وهذه جُملة آياتٍ تُؤكِّد أنَّ التَّبشِير لِلمُؤمِن فَحَسب.. تُحدِّد وَظيفة القُرآن الكريم:﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(١) ويَكون منها:﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢).

وبعد تَفصيل في بعض مَهام الرَّسول ﷺ كما في الآية:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(٣) يأتي التعقيب:﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾(٤)، وفي آيةٍ أُخرى مَع صِفة الإخْبَات ومَا تَقْتضِيه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٥)، وفي

١) سورة الإسراء، الآية ٩.
٢) سورة الإسراء، الآية ٩.
٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.
٤) سورة الأحزاب، الآية ٤٧.
٥) سورة الحج، الآية ٣٤.

آيَة أُخرى ومَع صِفَاتٍ لِلمُؤمِنين جَامِعَة تُخْتَم بالتَّبشِير لَهُم:﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) وفي آيَة أُخرى ومَع ذِكْر بَعض الجَزاء المُعَدّ لَهُم في الجَنَّة:﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢) وهَكَذا فكُلّ خَير أُخرَوِيٍّ مُرغّب فِيه في القُرآن الكريم إنَّمَا يُصْرَف إلَيهِم -وإن رغب فيه الجميع- لكِن يَحظَى به أُولئك لِما اختَاروا لِأنفُسهم بأن وَقَوْهَا شَرّ المعصيَّة فاستَقَامُوا عَلى الطَّرِيقَة.

فَمِمَّا سَبَق نَصِل إلى نَتيجَة: أنّ الأَصْل في الدّعْوَة الإنذَار مِن عَذاب الله تَعالى، وهَذِه دَعْوة عَامَّة لاَ يُخَصُّ بها أحَدٌ دون أحَد مِن مُؤمِن وكافِرٍ ثُمّ لاَ يَستَحِقُّ التَّبشِير غَير المُؤمِن

١) سورة التوبة، الآية ١١٢.
٢) سورة البقرة، الآية ٢٥.

المتَّقي: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾(١) وبهَذا تُربَط مَسألة التَّبشير والإِنذار بِما سبَق مِن الحَديث عَن التَّقْوى والمُتَّقِين.

هذا ، وإن الانتِفاع بنورِ القرآن والتّذكّر به يرتكز أساسا على الخوف من الوعيد ، ولا يتأتّى هذا الأخير إلا بالتصوّر الصحيح لقانون الجزاء واجتِثاث ما يلقيه الشّيطان من الأماني ، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(٢) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾(٣)(٤).

ولا ريب أن المؤمن الخاضع المُشفِق من عذاب الله سيجد في كتاب الله، كل ما يثبّته ويعينه على الطاعة من تذكير بالنعم

١) سورة مريم، الآية ٩٧.

٢) سورة ق، الآية ٤٥.

٣) سورة الأعلى،١٠.

٤) - بذلك نتمثل قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ولا يحصل هذا إلا بالتصور الحق للجزاء ، فلا خشية مع أمن عذاب الله ، ولا طمع مع ضمان رحمة الله!

والآيات في الأنفس والآفاق، ووعظ بقصص الأوّلين ، ووعد بالجنان والرحمات...

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١)

١) سورة النحل، الآية ١٠٢.

لا محيص عن التوبة لمن عصى

فمَا علينا بَعد هَذا الذي تَقدَّم إلاّ أن نُبادِر إلَى إصْلاح الأعْمال والتَّوبَة مِن الـمَعاصي، لِأنَّ ذَلِك هُو السَّبيل الوَحِيد الذِي يُطْمَأنّ إِليه وفيه السَّلامَة، ويُؤدِّي بِنا إلى الخُلُود في الجِنان، ويَعْصِمُنا مِن الخُلود في النِّيران، فَمَا التَّوبَة ومَا أَركانُها أَو شُرُوطُها؟.

ذلِك مَا يُمكِن استِخلاصُه مِن قَولِه تَعالى في آية واحِدة - وهُو يُؤَكِّد لِمَن تكون مَغفِرته -﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1] فَالمغفِرة يَستَحِقّها مَن استجمَع أُموراً أَربَعَة:

١ - التَّوبَة:

ولاَ تَكُون بِغَير الإِقْلاع عَن مَعصيَّة الله تعالى والرُّجُوع إِلَيه في غَير تَرَدُّدٍ ولاَ تَوانٍ ولاَ مَنٍّ ولاَ استِكثارٍ لِعَمَلٍ سَالِفٍ وأيضاً في

١) سورة طه، الآية ٨٢.

غَير استِكثارٍ لِلمَعصيَّة وشُعُور باليَأسِ مِن التَّوبَة مِنها استِجابَةً لِذلِك النِّداء الرَّحِيم﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1] في الآيَة دَلالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلى إناطة مَغفِرَة الذُّنُوب بالتَّوبَة، فَقَد يَشعُر العاصي بالقُنُوط مِن قَبُولِها نَظَراً لِكثرَتِها، ويُؤيِّد ذلِك كُلَّه مَا تَلاَ هَذه الآيَة بَعد ذلِك:﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[2].

ولْنتأَمَّل هَذه الآيَات الكَرِيمَة:﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ

١) سورة الزمر، الآية ٥٣.

٢) سورة الزمر، الآية ٥٤.

الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١] ففِيها وَعْد مِن الله تَعالى بالتَّوبَة لِمن يَتُوب مِن قَرِيب، بخِلاف الـمُصِرّ الذي يَعمَل السَّيِّئات ولاَ يَتُوب إلاَّ حِين يُضطَرّ، فقد أَمهَل الله تَعالى - مثلا- فِرعَون كَثيراً، لَكِن لم يَتُب، فَلَم يَقبَل تَوبَتَه حِين الغَرَق.

٢ - الإيمان:

إيمَانٌ بِكل مَا يَجب الإِيمَان بِه مِمّا أَوضَحَته آيَاتُ الذِّكْر الحَكِيم، وأمارة الإيمان ما في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢]، فَهُو إِيمان يُورِث العاصِي الشُّعور بما اقتَرف مِن المعصِيَّة والنَّدم عَليها، إِذْ أَقْدَم على معصِيَّة مَن لاَ يَسْتَحِقُّ المعصِيَّة،

١) سورة النساء،الآية ١٨.

٢) سورة السجدة، الآية ١٥.

بَل يَستَحِقُّ كُلّ الشُّكر﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[١].

٣ - العمل الصالح:

ولاَ يَكاد يَنفكُّ عَن الإِيمَان فِي كُلِّ آيات القُرآن، مِمَّا يُؤذِن بِاقتِرانه بِه بَل هُو جُزْءٌ مِن حَقِيقَته، ولاَ يَكون بغير إصلاحٍ لِلعَلاَقَة بَين العَبد وربِّه أوَّلاً، بأن يلتَزم أمرَه ونَهيَه جميعاً، وبَين العَبد وغيره مِن الـمَخلُوقات ثَانيًّا بأن يَتنصَّل عَن كلِّ مَظلَمَة كانَت مِنه نَحوهَا، ثُمّ المحافَظَة على صَلاَح ذلك وتَدارُك مَا قد يَفسُد مِن العَلاقَتين، ويُستَعان فِي ذلِك بأَهل الذِّكر﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[٢].

١) سورة لقمان، الآية ١٢.

٢) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

٤ - الاهتداء:

على نَهج الله وعَقد العَزم على الاستمرار على ذلك مَا عاش الإنسان، وإلاَّ فلا تَوقيت لِلطَّاعة، ولاَ وَقت تُباحُ فيه المعصيَّة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَــــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِراطَ الَّــذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[١]، وذلِك ما لاَ يُنال بِغير بَذلِ الجُهد والصَّبر، ومِن الله تَعالى الهِدايَة والتَّوفِيق، قــال تعالى:﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْــدِيَنَّهُمْ سُــبُلَنَا وَإِنَّ اللَّــهَ لَمَــعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

---

١) سورة الفاتحة، الآية ٦.

٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

البعد الحضاري لهذه التصورات

لَو كانت الدَّعوة إلى تَرك المعاصي والتَّوبة مِنها مُجرَّد اقتِراح لَكَان مُستَحسناً جدّاً في العُقول، لِأنَّ الخالق العَظيم يَستَحقُّ كُــلَّ الطَّاعة وتُقبِّح في حقِّه كُلَّ مَعصيَّة، لِما أَوْلى هَذا المخلوق الضَّعيف مِن نِعَم ولِما أحاط به مِن رِعاية، فَكَيف مع ذلك يُقــدِم علــى معصيَّته ويُصرّ عليها!؟.

لَكنَّ الأمر في هذه الدَّعْوة أَبْعد مِن ذلِك، فمَن لَم يُمســك عن المعصيَّة ويُسارِع إلى التَّوبة مِنها، كَانت ثَمَّة آيــات -كمــا رأينا- مُتَضَافِرة تَدعوه إلى ذلك مِن مُنطَلَق واقِعها الاضــطِراري، وإلاَّ فلا مَطمَع في النَّجاة.. وتِلك حقيقة لا يَجوز كِتمانُهــا، ولاَ تأخير البَيان فيها لِأنَّها مِلء آيات الذِّكر الحكيم -وإن غَفِل عنْهــا الغافلون وتَجاهَلها المتجاهِلون بشتَّى صُنوف الأسباب والأَعْــذار والظنون- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِــنَ الْبَيِّنَــاتِ

وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(١).

وعِلاج الإنسان لا يَنبَغي أن يُستمدَّ مِن غير خالِقه؛ فهُو أعلَم به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٢)، كما نبَّه هذا المخلوق إلى توحيده والإيمان بعظَمته؛ انطِلاقا مِمَّا حَوله مِن بديع الخَلق.. فَهُو مَن صرَّف الوعيد في القرآن تَصريفاً، وجَعَل مِن علامات أَولِيائه الخوف الشَّديد مِن المصير في غير يَأس، والطَّمَع في دخول الجنَّة في غير غرور﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٣).

وعَلَيه فإنَّ زَرع الخوف مِن المصير في قُلوب عِباد الله تَعالى مَطلب شرعيٌّ ومَقصَد إيمانيٌّ، وقبل ذلك أو بَعْده عِلاج لِداء

١) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

٢) سورة الملك، الآية ١٤.

٣) سورة المؤمنون، الآية ٥٧.

النُّفوس قَلَّما نَشعُر بقيمَته الحقيقيَّة، أو -لِنَقُل- قَلَّما نَتَفطَّن لِما يُفسد هذا العِلاج، ونُعالِجه بالحَسْم والحَزْم، فكانت دعوتُنا في ذلك يَشُوبُها الكثير مِن التَّناقُض وعدم الانسجام، فَلَم تَعُد الدَّعوَة إلى التَّقوى التي تَتَكرَّر على المنابر مَفهُومة، ولَعلَّها أضْحت دعوة مُمِلَّة؛ إِذْ لَم تَعُد قادرة على الوُقوف دُون تيار المعصيَّة الجارِف!.

فَلا مَحيص مِن الوُضوح في الأَمر، والوُضوح يَنطَلِق أوَّلاً مِن الاقتِناع العقليِّ، الذِي تُسَدّ به في الذِّهن كلُّ مَنافِذ النَّجاة، مَا لَم تكُن هناك توبَة خالِصة، وهذه ثَمْرة تَدبُّر تِلكم الآيات، ثم لا بَأس بَعد ذلك مِن تأجيج للعاطِفة، لكِن في غَير اتِّكاء على مَصادِر أُخرى غَير القرآن، أو غَير مَعْروضَة عليه؛ إِذ لاَ يُؤمَن مِنها دُخول مَا يُعكِّر صَفو الآيات وانسجامِها.

إنَّ الإنسَان -وقَد أُخِذ بهذا العِلاج الرَّبَّاني- لَن يُفكِّر عند كُلِّ مَعصيَّة يَقَع فيها إلاَّ في التَّوبة وفَقَط، ويَكفِي هذا الشُّعور الدَّائم أن يُلِين نَفسَه ويُهيِّئها إلى الأَوْبَة إلى الله تَعالى، ويَجعَلها تَتَضامَن مع كلِّ نِداء لِلخير، لانسِجامِه مَع تَطلُّعاتِها المُلِحّة، ولَنا

أن نَتصوَّر كيف يَكون حالُ الأمَّة وقد كَثُر فِيها مَن يَحمِل هذا الشُّعور، أَلَيْس في ذلِك دَفْع لِأَفرادِها إلى نُقطة الِالتِقاء، حيثُ لا تَفكِير إلاَّ في التَّوبة، أو -بعِبارَة أَوْلى- لا تَفكِير إلاَّ في النَّجاة مِن المعصيَّة، وهَا هُنا يَتَجلَّى البُعد الحضاريُّ لِهذه الحقيقَة القُرآنيَّة.

ومِمَّا هو مَعلُوم لدى العُقَلاء أنه لا يمكِن لأيِّ قانون تحقيق العَدَالة دُون أَن تكون أوامره وقَوانينه مُلزِمة، فالله تعالى الذي وعَد بالعَدَالة والأَمْن والحيَاة الطيِّبة في اتّباع دِينه، جعل أوامره تستمد إلزاميتها من تصوّر الحِساب الأُخروي العادل[1]، فَماذا عَسى أن يحقِّق هذا الوَحي الربَّاني في واقع النَّاس مع وُجود مثل هذه التَّصوُّرات والأمَانيّ التي تُحيل الأوامِر الرَّبانية إلى مجرَّد اقتِراحَات؟!.

فَكَم ضَيَّعت هذه الأمَّة مِن انتِصاراتٍ، وكَم أهْدَرت من أوقاتٍ، وكَم استَهزَأت بِواجباتٍ وانتَهَكت مِن مُحرَّماتٍ،

١) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

وكَم...وكَم...، فضَيَّعت بِذلِك ما وعد الله بِه عِباده مِن الحياة الطيبة والاستِخلاف في الأَرض والتَّمكين فِيها، فكَانَت عَالَة عَلى غَيرها بَدل أن تَقُودهم هي وتَسُوسَهم بشَرِيعة الله تعالى، ولَيس خَلْف ذلِك في جَميع الأَحْوال إلاَّ ارتِكاب الـمُخالَفات والإِصْرار علَيها على جَميع الـمُستويات[1].

ومَثَلُ مَن يَغفَل عَن هذا الأمر، ويَبْحث عن عِلاجٍ غيره؛ مَثَلُ الطَّبيب الذي شَغَلَته أعْراض الـمَرض عَن الفَيْروس الذي وَراءَها...، وصَدَق الله العَظيم حِينَما قال:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ...﴾[2]، وفي أخرى:﴿أَلَمْ

١) من هنا ندرك أنه طالما تساءل المفكرون: كيف نخرج مما نحن فيه من الهوان؟ وطالما أجابوا بأن ذلك لا يكون إلا بالعودة إلى الإسلام؟ ولكن *الحلقة المفقودة* هي: كيف ذلك ؟؟، فالدعوة إلى العودة إلى الإسلام مع تجذُّر الأماني -التي تضمن لعصاة المسلمين المصرين النّجاة-، لا تعدو أن تكون أمرا مستحبّا مرغّبا فيه ، فمتى تتم العودة!!؟.

٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(١).

تم بحمد الله

١) سورة يس، الآية ٦٠.

المحتويات

المقدمة ١
الإنسان في الوجود ٥
المعصية تحت المجهر ١٨
فتنة الأماني ٢٢
الاغترار بالتوحيد: ٢٣
الموازنة: ٣٨
الشفاعة: ٤٤
أ- وظيفة الرّسول ﷺ: ٤٥
ب- معنى الشفاعة: ٤٩
المشيئة: ٥٩
تلخيص وتنبيه: ٧٢
مفاهيم يجب أن تصحح: ٧٦
١- ما الرحمة الإلهية ولمن؟: ٧٦
٢- بين الإنذار والتبشير: ٨٥
لا محيص عن التوبة لمن عصى ٩٥
١- التَّوبَة: ٩٥
٢- الإيمان: ٩٧
٣- العمل الصالح: ٩٨
٤- الِاهتِداء: ٩٩
البعد الحضاري لهذه التصورات ١٠٠
المحتويات ١٠٦